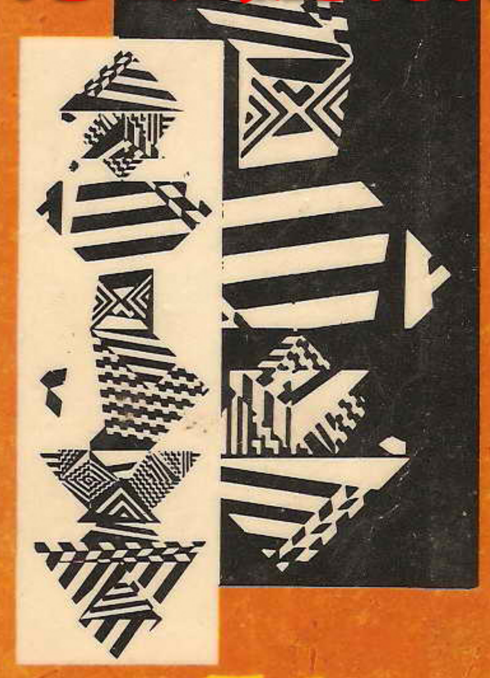
أنيس منصور





مع الآخرين

المكتب المصري الحديث

أنيس منصور







قرأ اثنان من الأدباء الروس خطابا بعث به تولستوى لأحد أصدقائه • وفكر الاثنان فى أن يزورا هذا الكاتب العظيم •

الاثنان هما : جوركى ، وتشيخوف •• والخطاب يقول :

« يجب أن تنتج ويجب أن تعبر عن كل ما هو ناضج فى نفسك ، فلا أحد يستطيع أن يعبر عنه سواك • لا يهم أبدا ما يقوله الناس عنك • لا يهم ما يقيمونه من حفلات لك • لكن الذى يهم جدا • وفى الدرجة الأولى • هو أن تحس أنك تقول شيئا جديدا وشيئا عاما يحتاج اليه الناس • وعندما تحس بذلك • وتعمل من أجله • فما أعظم سعادتك فى هذه اللحظة » •

وفى نفس الوقت أحس هذان الأديبان أنهما يجب أن يحاسبا صاحب هذا الخطاب • أن يسألاه ان كان لديه شىء جديد • ان كانت أفكاره الناضجة تنفع الناس • ان كان النضج وحده يكفى • فمن الممكن أن تنضج ثمرة على شجرة وتتعفن • واذا سقطت الى الأرض الى الناس ، كانت جثة هامدة • وان كان هذا الفنان العظيم لا يزال متمسكا بهذه النصيحة وان كان لديه شىء يقوله لهما معا أو واحدا واحدا ••

وفى سنة ١٩٠١ وفى « يالتا » التقى الثلاثة فى لحظة باهرة نادرة ..

وكان تولستوى فى الرابعة والسبعين ..

وكان تشيخوف فى الثانية والأربعين ..

وجوركى فى الثالثة والثلاثين ..

وكل واحد منهم يمثل طبقة ، وأسلوبا فى التفكير وفى الحياة ..

تولستوى يمثل الأرستقراطى الاقطاعى الفـــردى فى تفكيره وفى قضاياه ، وهـــو فى نفس الوقت نموذج متكامل لأبناء القرن التاسع عشر ..

وتشيخوف يمثل المثقف من أبناء الطبقة الوسطى ويحتفظ فى نفس الوقت بطبيعة العلماء الذين يقدسون التجربة .. يرون أن الحقيقة الوحيدة هى التجربة وأنها الوسيلة الوحيـــدة لمعرفة شىء ، أو لتغيير شىء من الواقع .. وهو أيضا لا صبر له على الأفكار الفلسفية المجردة .. وان كان فى نفس الوقت عاجزا عن ربط أفكاره فى اطار واحد متكامل ..

وجوركى يمثل الطبقة العـــاملة ، والجماهير الثورية ، ولكنه واثق من هدفه ، متأكد من معلوماته ، وهو يأخذ الفن مأخذا جادا صـــابرا ..

أما النتيجة التى خرج بها هذان الاثنان من لقاء عملاق الأدب الروسى فهى : أنه فنان عظيم وأنه ســاحر ولكن فى غير زمنه

وأنه وصل الى المحطة بعد قيام القطار .. وأنه الآن يعيش فى عصر النمو الصناعى والارهاب الرسمى . والظلم الاجتماعى . وانه جبل منعزل عن الوديان الشعبية . وان هناك معابد جديدة تقام فى كل مكان . أما المناسبة فهى ظهور الهة جديدة .. وشروق شمس جديدة .

يقول تشيخوف : هذا الرجل كان يملأ نفسى .. والآن لم يعد له مكانة فيها .. لقد ترك نفسى وتركها خالية .. وترك بيتى وحياتى أيضا ..

ويقول جوركى : انه انعزالى وهو من أنصار المقاومة السلبية ومقابلة الاساءة بالاحسان . والعنف بالرفق . والمأساة بالاخلاص الفردى .. وكان شعورى فى كلمتين : القرف والفزع !

وبعد هذا اللقاء اتجه كل واحد الى طريقه ..

وازداد اطمئنان كل واحد منهما على سلاحه وعلى قدراته .. وعلى أنه فى استطاعته أن يمسك الراية التى سقطت من يدى تولستوى .

كأنهما اثنان من الشبان جمعا مبلغا من المال وذهبا به الى البنك . وبدلا من أن يشعر كل واحد منهما بتفاهة ما عنده من أموال ، وضآلة المجهود الذى بذله كل منهما فى جمعه ، أحس بتفاهة الأموال الموجودة فى البنك . وكل ما أعجبهما فى البنك هو البناء فقط .. ولكن الأوراق المالية التى امتلأ بها البنك زائفة .. قديمة .. ألغيت من وقت طويل !

ان الشكل فقط هو الذى أعجبهما •• أما المضمون فهو كالطعام البايت • أو كالثمرة المتعفنة •• أو كالقرن التاسع عشر • عندما يتطلع اليه أبناء القرن العشرين !

***

وهذا اللقاء تاريخى نادر وباهر ••

فليس يحدث كثيرا أن يصادف الانسان فى حياته الطويلة كتابا يهزه •• ويفتح عينيه على كل شىء جديد •• ولا حادثة تضعه على الطريق السليم •• ولا شخصا يحول تفكيره من اليمين الى اليســار ••

فهذا لا يحدث كثيرا • واذا حدث وبقوة وبصورة ايجابية فهذا شىء نادر ••

ومن الممكن أن يظل الانسان طول عمره عبارة عن قفل متين لا يصادف مفتاحا ••

أو لغما عائما لا يصادفه جسم يجعله يتفجر ••

أو قمقما مغمورا فى خضم النسيان لا تمتد له يد تنزع غطاءه وتكشف طاقته الهائلة ••

أو يظل وجها هائما يبحث عن مرآة ••

فيبقى مجهولا للنــاس •• ومجهولا لنفســه أيضا •• فهو لا يعرف قدرته • ولا يعرف ما الذى يستطيع أن يعمله • ولا أين

يعمله . ولا كيف يعمله . ومن الممكن أن يمشى فى طريق طويل . يغريه المشى بالاستمرار ويغريه الاستمرار بالاطمئنان الى قدرته ..

ولكن عندما تتاح له فرصة نادرة .. ولو مرة واحدة فى حياته .. فينفتح القفل ويتفجر اللغم ويرى لأول مرة ملامح وجهه .. ويرى ما تحت الوجه من استعداد وقدرة على أن يعمل وينتج ويغير نفسه . بل يغير ما حوله أيضا .

هناك فقط يشعر الانسان شعورا متناقضا ..

فهو يشعر بخيبة الأمل . لأن أفكاره القديمة كلها قد سقطت عنه كثوب قديم .. ويشعر فى نفس الوقت بأن فرصة جديدة قد أعطيت له لكى يغير من نفسه ويستدرك ما فات ..

ويشعر بشىء أعمق من هذا . وأكثر قسوة ..

وهو أنه كان يلقى بأسباب فشله على أنه لم يعرف طريقه بعد .. على أنه لم يكتشف نفسه بعد .. على أنه ليس هو الذى يعمل كل شىء .. وانما انسان آخر ، لم يهتد الى معرفة حقيقته بعد . ولكن أن يعرف الانسان قدراته واتجاهاته يصبح فى هذه الحالة مسئولا عما يفعل . ومطالبا بأن يغير من نفسه ومن الآخرين أيضا ..

ولذلك رأى تشيخوف وجوركى أن تولستوى العظيم قد تباعدت المسافة بينه وبين نفسه .. وبينه وبين الناس .. وأنه لذلك نسى ما كان يقوله .. وأن الذى يذكره هو شىء لم يعد له سحر ..

وأن تولستوى يطبع عملات ورقية ليس لهـا غطاء ذهبى •• والغطاء الذهبى هو النـاس • أو هو الواقع •• هو التجربة الحية •• أى التجربة التى يعيشها هو أيضا •• فتولستوى كان حيا • ولكن بلا تجارب •• بلا صلة بالناس ••

وما أكثر الأحياء الذين بلا تجارب ••

وما أندر اللحظات التى يحس فيها الانسـان أنه حى وأن حياته قوقعة •• ضيقة محدودة خانقة ••

وما أندر وما أبهر اللحظات التى يخلع فيها الانسـان قوقعته ويقدمها قربانا للواقع الجديد !

أنيس منصور

الطريق الذي ينتهي بالنوم

كان الخوف من المرض هو الحائط الرابع لكل غرفة فى بيتنا ، فقد فتحت عينى على وجوه شاحبة وأجسام تتلوى . وفتحت أذنى على آهات وصراخ . وأمسكت عقلى عن التفكير فى أى شىء .. لأنه لا قيمة للتفكير فى العلاج . فالأطباء يدخلون ويخرجون وعلى وجوههم نفس الابتسامة الفارغة التى فى لون الورق الذى يكتبون عليه أسماء الأدوية التى لا قيمة لها .. وخرج المرض ودخل الأطباء . وبقى الخوف من المرض عميقا فى نفسى . واتخذت من المرض ، موقف الحذر . فظننت أن الوقاية خير من العلاج . ولم أعرف ما معنى الوقاية . الوقاية من أى شىء ؟ وكيف والى متى ؟ ولم يخطر على بالى أننى أخاف من الموت . فلم يكن خوفى من المرض سببه أن المرض هو العتبة الأولى للموت . لأنه من الممكن أن يموت الانسان بلا مرض . وأن يمرض سنوات ولا يموت . ولكن خوفى كان غامضا كان بلا حدود . وحاولت أن أجعل لنفسى درعا تقينى من المرض . ومن الوقاية . حتى تعبت من أن أظل فى حالة دفاع عن الجسم ضد عدو لا أعرفه . ولا ادرى من أين يجىء . وحرصت على أن أعرف كل الخائفين من المرض مثلى . وشعرت بالارتياح عندما وجدت أن عددهم كبير جدا . وحاولت أن أستعين بخبراء فى الأسلحة المضادة للمرض . فكان لى أصدقاء من الأطباء . وكل واحد متخصص فى مرض .

وظننت أن هؤلاء الأطباء هم الأنوار الكاشفة لغارات الجراثيم . وتوهمت سنوات طويلة أننى فى مأمن من الأمراض .. فقد أقمت المدافع والصواريخ على الحدود التى تفصل بينى وبين العالم الخارجى . ولم أكن أتصور أن الأرق الذى كان يلازمنى سنوات طويلة . ليس الا حالة نفسية لمن يعيش طول عمره فى حالة حرب مع الطعام والشراب والهواء . واليد التى تمتد والفم الذى يقترب والباب الذى ينفتح فجأة . والنافذة التى يتسلل من تحتها الهواء الذى يشبه الابر الباردة .

ولكن جرثومة واحدة كانت قادرة على أن تنفذ من وراء هذه الحراسة الشديدة .. انها جرثومة الزكام والأنفلونزا والسعال . انها تنتقل الى جسمى بصورة خرافية . اذ يكفى أن أسمع عن انسان أنه مزكوم حتى أعطس فورا . ليس هذا تشنيعا وانما هى حقيقة . فالزكام عندى هو مسألة نفسية . ليس مسألة جسمية . ومعنى ذلك أن هذه الحراسة الشديدة وهذه المدافع المزودة بالحبوب والأقراص والزجاجات والحقن لا تستطيع أن تحمينى من نفسى . فالزكام والسخونة والرعشة مسألة نابعة منى أنا . فانا اذن محتاج الى من يحمينى من نفسى ، من مخاوف العميقة جدا . وهذا ما يعجز عنه الأطباء .

وعندما أيقنت أن الأطباء عاجزون عن حمايتى منى . بدأت أشعر بأن هذه الحراسة ضعيفة وبأن هذه الحراسة لا قيمة لها ، وأن الآية الكريمة التى تقول : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ، لا تعنى الموت فقط ، وانما تعنى أبسط أنواع الجراثيم .. وأغمضت عينى عن الحراسة ، وعن

الأطباء ، وعرفت النوم ، وعرفت أن النوم سببه عدم الخوف • وأن الذين يخافون لا ينامون • وأن أكثر الناس نوما هم أقلهم خوفا • وأن النوم أنقذنى من مرض اسمه : الخوف من المرض • ومن مرض آخر اسمه : الايمان بالطب • وقد علمنى النوم أنه أعظم طبيب وأن راحة الأعصاب تؤدى الى انتظام الدورة الدموية والجهاز الهضمى ، والى انتعاش الأعصاب •• وقرأت أن النوم هو أعظم علاج للبشرة • والبشرة ليست الا عضوا يتغذى على الدم ، والدم يصبح نقيا بسبب النوم الذى ينقذنا من الامساك الذى هو المصدر الحقيقى لكل سموم الدم وكل أنواع الصداع •• وعرفت أيضا أن الحيوانات التى تنام كثيرا ، يطول عمرها •• فالسلحفاة أطول الحيوانات عمرا ، لأنها تنام معظم حياتها ، والثعلب أقصر حيوانات الغابة عمرا ، لأنه أكثرها حذرا ، وأكثرها خوفا وأقلها نوما !

ودخلت كلمة « الحساسية » حياتى •• كما دخلت حياة الكثيرين جدا من الناس • وهى كلمة اخترعها الدكاترة لأنها الشماعة التى يعلقون عليها عجزهم عن علاج أى مرض • يكفى أن يقول الطبيب : ان عندك حساسية ضد البرد وضد الحر •• وضد الأكل وضد الشرب •• وضد الطب •• وضد الدكاترة أنفسهم •• يكفى أن يقول هذا لتقتنع أن مرضك هذا طبيعى ، وأنه كان لابد أن يحدث ، وأن علاجك لم يخترع له العلم الحديث أى دواء ••

والحساسية معناها أنه من الممكن أن يصاب الانسان بأى مرض • فى أى وقت • وأنه يستحيل علاجه • لأن الطبيب لكى يعالج المريض ، لابد أن يعرف الشىء الذى هو « حساس »

بالنسبة للمريض •• وأحدث كتب الحساسية تقول ان كل شيء يلمسه الانسان ويتناوله هو حساس بالنسبة له • ومعنى ذلك أنه لايوجد أى مصدر محدد للاصابة بالحساسية • أى أن هناك مئات الألوف من الأسباب لشعورك بأن لديك رغبة فى الهرش • فالهرش هذا سببه أن عندك حساسية •• ولكن لأى شيء ؟ هذا هو السؤال الذى لا جواب عليه ••

وتحددت كل آلامى فى مكان واحـد من جسمى هـو المصران الغليظ • وأول تشخيص للمصران الغليظ هو أن المصاب به مرهق نفسيا • وأنه يجب أن يستريح • وأن ينام على الأقل • ولكن كيف ينام العاجز عن النوم •• التشخيص الثانى يقول لك : السبب هو كثرة المنبهات •• والعلاج هو الاقلال من المنبهات • ولكن الاقلال من المنبهات يقلقنا أكثر ويزعجنا أكثر ويباعد بيننا وبين النوم • وخصوصا اذا كانت القهوة كيفا لا مفر منه • التشخيص الثالث يقول لك : امتنع عن نصف الأطعمة والفاكهة وكل المنبهات ثم يجب أن تتناولها كلها مسلوقة •

***

وعرفت عددا من الأصـدقاء يعيشون على المسـلوق بسبب المصران الغليظ • ومن الأدباء والمفكرين على وجه الخصوص •• وفى مقدمتهم توفيق الحكيم •

وتعلمت من توفيق الحكيم أن أضع فى جيبى جدولا بالأطعمة التى يجب ألا أتناولها كل يوم ، والتى يجب أن أتناولها مرة فى الأسبوع والتى يجب ألا أتناولها الا بأذن الطبيب •

وسألت توفيق الحكيم عن الأمراض التى يخاف منهـا ، ولم يشأ الحكيم أن يذكر أسماء متاعبه ، والأمراض التى يخاف منها • ولكنه أكد لى أيمانه بالمجلة الطبية التى نقل عنها الجدول ، وأكد لى أيضا أنه عندما يضع الجدول فى جيبه يشعر بالمناعة ضد أى مرض !

وعاودنى الخوف بصورة عنيفة ولم أعد قادرا على أن أتردد على أى طبيب • واكتفيت بادمان التحاليل ، فلا يكاد يمضى شـهر حتى أذهب الى طبيب ليحلل لى كل السوائل التى فى جسمى تمشيا مع النصيحة الفرعونية القديمة التى تطلب من كل انسان ــ سليما أو مريضا ــ أن يتردد على الطبيب مرة كل شهر • ولا أعرف ان كان بين الفراعنة أناس زادت أعمارهم على مائة سـنة • ربما كان رمسيس الثانى هو أطول الملوك عمرا فقد كان أكثر حاشيته من الأطباء !

وقد رأيت الدهشة على وجوه طلبة « كلية الطب بجامعة عين شمس » عندما رويت لهم أننى دخلت احدى غرف العمليات لكى أخلع ضرسى وتحت تأثير من البنج الكامل •• ولم أذكر لهم ان خلع الضرس بالبنج الكامل ، وقطـع الأظافر تحت تأثير البنج الكامل ، كان من اختراعى واكتشـافى • فقـد قرأت كتابا لأحد العلماء الألمان عن فائدة البنج للذين يشكون من الأرق المستمر والقلق الدائم • وان الأرق والقلق ليسا الا صورتين متلازمتين لشىء واحـد هو : الحساسية !

فلا الطلبة صـدقونى • ولا الممرضات اللاتى وقفن بملابسهن

البيضاء كأنها أكفان متحركة فى غرفة العمليات • ولم تكن ترابيزة العمليات الا تابوتا فرعونيا لواحد يكاد يموت من ألم فى ضرسه!

***

وفى يوم قابلت صديقا • وقبل أن أضع يدى على جنبى الأيمن • وقبل أن آخذ نفسى وأقول : آه •• تغير لونه وشكا بأعلى صوته من آلام وأوجاع لا أول لها ، ولكن آخرها فى مكان واحد فى القاهرة هو عيادة المرحوم أنور المفتى • وشكوت له من الباب المغلق دائما فى وجه أى مريض • ومن التليفون المرفوع دائما • وروى لى الصديق أنه قابل الدكتور أنور المفتى وأنه نصحه بعدم أكل البصل • فقط بالامتناع عن أكل البصل • وفى هذا علاج له من متاعب المعدة والمصارين والصداع • ولم يصدق الصديق أن متاعبه المعقدة ، لها سبب واحد وبهذه البساطة •• وفهمت منه أن الدكتور أنور المفتى رغم أنه رجل جاد ، فانه يحب النكتة أيضا ، ولكنه يستبعد أن يكون الامتناع عن البصل احدى نكت الدكتور أنور ••

وقررنا أن نذهب معا لمقابلة الدكتور أنور المفتى وذهبنا معا نجر وراءنا الخوف والحساسية • وملأت جيوبى بكل الروشتات التى عندى من أطباء فى مصر وفى ايطاليا وفى أمريكا وفى اليابان وفى أستراليا •• وعشرات من التحاليل • وفتحنا باب الدكتور المفتى بقوة • لا أعرف ان كانت قوتى أوقوة الصديق • والعيادة عادية جدا • أو أقل من عادية • ولكن الطبيب هو الذى فوق العادة • وقابلنى تمورجى كأنه يعمل فى قهوة الفيشاوى • يخرج

من غرفة المرحوم أنور المفتى • وانتهزها الصديق فرصة وكتب له خطابا ألقاه من تحت الباب • وكانت كلمات الخطاب تقول : يا مسيح القرن العشرين • أنقذ مريضك المريض جدا •• وبينما كنت سائرا فوق كوبرى قصر النيل وجدت زحاما من الناس • ولما اقتربت منهم وجدتهم يمسكون صديقا قرر أن يلقى بنفسه فى النيل • ولما سألوه عن السبب قال : اما النيل واما الدكتور أنور المفتى ••

وكنت أنا هذا الصديق ••

وبعد ساعة دخلت • وبحركة لا شعورية نزعت الجاكتة وأنزعت جيوبها • وأضاءت ابتسامة الدكتور أنور المفتى الطريق الى الترابيزة الطويلة وتمددت وقلت : آه •• ولم يكن قد لمسنى •• وضحك وضحكت •• وراح يتحدث معى فى موضوعات لا علاقة لها بمرضى أو بالطب ولم يكلف خاطره القاء نظرة واحدة على الروشتات التى ملأت جيوبى • وعادت أصابعه ترن على بطنى وضلوعى وظهرى كأنه ساحر فى أواسط أفريقيا • وكأننى طبلة مصنوعة من جلد الحيوانات الوحشية •• ورحت أروى للدكتور أنور تاريخ حياة بطنى ومعدتى ومصارينى •• وأقول له انها أحيانا تموء كالقطة ، وتنبح كالكلب وتتلوى كالأفاعى • وكأن الدكتور أنور المفتى يستمع الى تلميذ قد حفظ كتاب الانشاء •• وكأنه لا يعجبه هذا الأسلوب من الكتابة • ولا هذه الطريقة فى الحفظ • وطلب منى أن أرتدى ملابسى • وأن أقوم ؛ وأكد لى أن شفائى مؤكد وأنه يريد أن يرانى بعد شهر من الآن ••

وعندما خرجت من عيادة الدكتور أنور المفتى نسيت أن أمر على الأجزاخانة لكى أشترى الأدوية التى نصحنى باستعمالها • ووقفت أمام العيادة أدق بيدى كل المنــاطق التى وقعت يده عليها •• ولكن لم أشعر بأى ألم •• لا فى الجانب الأيسر ولا الأيمن واختفى الصداع •• واختفى الخوف وكأننى قد أمنت على حياتى ضد المرض •• وضد شىء أقسى من المرض ومن أى مرض وهو : الخوف ••

وقابلت أصدقائى الذين كانوا يشكون من مثــل مرضى •• وأعطيتهم أسماء كل الأدوية التى وصــفها لى أنور المفتى • وبعضهم كان يستقبلها بدهشة •• ولم أعرف معنى هذه الدهشة الا بعد وفاة الطبيب العظيم أنور المفتى • لقد كانت الأدوية بسيطة جدا • انها عبارة عن تسع زجاجات • أما هذه الزجاجات فهى مليئة بالفحم والأعشاب الملينة •• أما الزجاجة العــاشرة أو الزجاجة التى تضم هذه الزجاجات التسع فلا توجد فى أية أجزاخانة • انها موجودة الآن فى القبر •• انها أنور المفتى !

آه •• أقولهــا الآن من جنبى الأيسر ومن جنبى الأيمن •• أقولها بالأصالة عن نفسى •• وبالنيابة عن جسمى •• لقد مات الطبيب •• وعاش الانسان •• ماتت حكمته ، ولم يبق الا قلبه يخفق فينا امتنانا له • وبكاء عليه •

مرحبًا أيها العمل

أحيانا ينتابك شعور يقضى على كل شعور آخر ••

أحيانا يلتصق بك الشعور ويصبح توأما لا ينفصل عنك ، فيعترض طريقك ، ويطبق جفنك ، ويسد أذنك •• ويجعل أعضاءك كلها بلا وظيفة •• بلا عمل ••

لقد جربته وعانيته واستسلمت له ورأيت الدنيا به •• وانتزعت نفسى منه •• ولكنى مثل شيال كان يحمل حقيبة ثقيلة فوق رأسه •• ثم ألقاها على الأرض •• ولكن وما يزال رأسه يوجعه !

***

حتى عندما تنقلت بين أركان الدنيا كان كل شىء متفتحا ، يعانق بعضه بعضا •• الا أنا !

فالطريق من الهند الى استراليا الى اليابان الى أمريكا مفروش بالسحاب وكنت أصعده على درجات سلم • والسلم ينزل من الطائرة • كأنه لسان ممدود تتحدى به الطائرة سكان الأرض ••

وكنت أنتقل من الأسود الى الأصفر الى الأبيض •• من اللؤلؤ

الى البراكين •• من الحار الى البارد •• وكل شيء حولى يتغير ويتبدل • ويغلى ويجمد • ويثور ويموت •• الا أنا !

لقد كنت مثل رواد الفضاء •• محبوسا فى برميل من الحديد • والبرميل يدور حول الأرض • ورائد الفضاء من داخله مشدود بحبال •• والحبال مربوطة فى وتد ••

وليس هذا البرميل الحديدى المقفل فى وجه الدنيا كلها ، الا نفسى • وليست هذه الحبال الا عيوبى • وليس هذا الوتد الا قلمى ••

فأنا أدور حول الدنيا ••

والحقيقة أننى جامد • والدنيا هى التى تلف وتدور وتتغير وتتبدل حولى •• كأنها راقصة تنزع كل لحظة فستانا •• وكل لحظة تغير رقصتها وموسيقاها •• ولما يئست من المتفرج القرفان راحت تنزع جلدها • ولما أدركت أنه يغط فى قرف عميق نزعت حذاءها وأمسكت الحذاء فى يدها •• ثم عادت فغيرت رأيها عندما رأته يصحو فجأة ليتجه الى سلم الطائرة من جديد ••

كل شيء جديد ومن جديد الا أنا ••

ولسبب لا أعرفه جعلت نفسى زنزانة لنفسى •• وكنت السجين والسجان معا ••

لسبب لا أعرفه احتبست ••

أدرت وجهــى الى داخلى •• وقلبت عينـــى لأرى ما فى أعماقى •• وأصبحت كجورب مقلوب •• وطالت نظراتى •• حتى قصر نظرى ••

تماما كالأسماك التى تعيش فى أعمــاق المحيط •• وأعماق المحيط مظلمة • ولذلك تفقد قدرتها على الرؤية •• فتصبح لهــا عيون تنظر ولا ترى •• عيون مرسومة •• عيون للزينة •• عيون عيرة •• أعضاء بلا وظيفة ••

وانشغلت بوجودى عن الناس •• فانعزلت •• وحولت نفسى الى روبنســون كروزو •• وكانت العــزلة هى جزيرتى •• والخرافات والأوهام والمخاوف هى رعاياى ومملكتى ••

وانشغلت بالمباراة الطويلة فى داخلى •• مباراة ليس لها كأس ولادورى •• مباراة بين عقلى وقلبى •• بين عقلى وأمعائى •• بين أعصابى وعضلاتى ••

وانشغلت بنفسى عن النـــاس •• فاصطدمت بالنـــاس •• اصطدمت بهم لأننى أسمعهم ولا أراهم أو أراهم ولا أسمعهم • ولذلك لم أعتــذر • لأننى لم أدرك من الذى اصطدمت به •• ولا لمـــاذا ؟ ولم أفرق بين الحجر والشــجر •• بين النـــاس والأشباح !

تماما كالذى يركب البسكليت وينشغل بالنظر الى قدميه • فانه يدوس النـــاس !

وانشغلت بالنظر الى الماضى • وأغمضت عينى عن الحاضر ••

فكانت أفكارى على شكل ندم ، وكانت آمالى على شكل خوف •• وأصبحت كسائق السيارة الذى ينظر دائما فى المرآة ، فلا يرى الا الذين وراءه ••

ولا بد أن يصطدم بالذين أمامه ••

وانشغلت بالخوف من المستقبل عن فهم الحاضر •• فوقعت وترديت •

تماما كالعاشق الولهان الذى ينظر طول الوقت الى القمر •• كم حفرة يقع فيها •• ولكنه مثل موجة فى بحر لا نهاية له •• مشدود الى أعلى •• الى القمر !

وأصبح لى مرصد واحـــد ••

أسجل منه حركات العالم الذى حولى ••

فأنا المرصد الذى أسجل منه حركات العالم حولى •

ولكن هذا المرصد عدساته مفتوحة على الآخر •• عدساته مبحلقة للكون كله •• ولذلك فالصور كلها « فلو » •• لأن فتحة العدسة غير مضبوطة !

وعندما تحس ولو لحظة واحدة فى حياتك وبعمق أن الصور التى تلتقطها للدنيا التى حولك ، مهزوزة •• فلا يوجد بهـــا ضوء واضح ، ولا ظل واضح ، ولا توجد فوارق بين الأشخاص والأشـــياء ••

هنا فقط يجب أن تعرف أن شيئا خطيرا قد تسلل الى نفسك • ولابد أن يتسلل يوما ما • ولا يوجد انسان لم يعرف هذا الشىء الخطير : انه الملل !

فقد مللت ــ أنا ــ نفسى ••

مللت البرميل الحديدى الذى طرت به حول العالم •• الهواء حولى لا حد له ، ولكنى أقفلت نافذتى •• والجاذبية قد انعدمت، ومع ذلك فقد خلقت لى جاذبية خاصة ، وجعلتها مرئية على شكل حبال •• وعلى الرغم من أننى انسان ، فقد شددت قيودى الى وتد ، كأى حيوان فى زريبة لا فى طائرة !

هذا الملل يجعلنى أحس دائما برغبة واحدة هى أن أتثاءب أمام كل شىء •• فعندما أرى كل ما حولى فاننى أفتح فمى • وفى نفس اللحظة أطبق عينى وأسد أذنى ••

وأحس أيضا أن كل شىء حولى لا يكاد يرانى حتى يتثاءب أيضا •• كأنه لا يريد أن يرانى •• وتتحول الدنيا الى بلاد نيام نيام •• وأظل أنا الصاحى الذى يتثاءب •• أو النائم الذى يمشى وهو يحلم ••

لقد مررت بسنوات طويلة من الملل •

أو مرت بى سنوات طويلة من الملل •• فأنا كالذى يمشى على ظهــر باخرة •• هى تمشى بى • وأنا أمشى عليها • ونقترب من الهدف بسرعة واحــدة ••

وكم أحسست أننى أتحرك بين شاطئين من الرمال الناعمة •• وكثيرا ما اقترب الشاطئان وكثيرا ما التصقا حتى أصبحا صحراء من الرمال • وكثيرا ما تباعد الشاطئان •• وأحسست أن الرمل حى يتحرك ••

وأن الشاطىء ليس الا نملا حيا •• وكثيرا ما تمددت على هذا الشاطىء النملى • ولم أستطع أن أصرخ •• ولا أن أبكى • فقد مللت صوتى وأنا أصرخ • ومللت الدموع وعيناى تبصقانها على خــدى ••

حتى هــذا الكلام أحسست أنه علب من ورق •• والورق ملون •• وهذه العلب فارغة •• بلا معنى •• أجسام بلا أرواح •• كأن الذى صنعها نسى أن يضيف اليها المعنى والحياة وأن يركب فى مقدمتها التلسكوب الذى يجعلها تكشف الهدف ••

طبيعى جدا أن يمل الورق يدى ••

وطبيعى جدا أن تمل الأوراق ألوانها •• وأن تفقــد الألوان معناها •• ومللت زنزانتى •• التى جعلتها صومعتى أتعبد فيها بأوهام هى عرقى ، وخرافات هى دموعى ••

وعندما حاولت أن أحطم صومعتى •• لم يكن عنــدى هدف جاهز •• ولا غاية منشودة •• فكنت أحطم فقط •• كلاعب كرة يشوط فى الأوت دائما ••

ولم أكن أعرف أننى أحطم قدراتى ••

وأن صومعتى هى جلدى • وأن مياهها الاقليمية هى ملابسى •

وحتى عنــدما فتحت نوافذى ودخلت الشمس ، لم تكن الشمس دافئة • لقد كانت الشمس التى تظهر فى منتصف الليل فى السويد • باردة مظلمة •• مجرد أعجوبة • ولكنها لا تبعث الدفء ولا الحياة !

وحتى عندما فتحت نوافذى كنت مثل نوح عليه السلام •• أطلق غرابا لعله يعود وفى منقاره غصن من شجرة على الأرض القريبة ••

وحتى الآن لم يعد الغـــراب ••

ولكن يكفى أننى فتحت نافذة •• يكفى أننى ملأت صـــدرى بهواء سليم •• واذا لم يعد الغراب أرسلت آمالا أخرى •• فلا حياة بغير أمل ••

أو كأننى مثل قواقع اللؤلؤ ••

اذا تسللت اليها ذرة من الرمل فانها تغوص فى أعماق البحر تفرز عليها مادة عازلة •• وعلى مر السنين تتحول هــذه المــادة العازلة الى حبة لؤلؤ رائعة ••

فقد أقام حيوان القوقع قبرا رائعا لذرة الرمل ••

وذرة الرمل هى الملل ••

وحبة اللؤلؤ هى العمل ••

والعمل مقبرة الملل •

ولا عمل بغير خطة واضحة ••

ولا أدعى أن لدى خطة واضـــحة •• ولـــكنى بدأت أرى بوضوح •• بدأت أضبط فتحة العدســـة •• بدأت أحـــول « البحلقة » الى نظرة مركزة •• لم تعد الصورة التى أمامى « فلو » ••

اننى أقيم مقبرة للملل ••

اننى لا أنتظر الملل حتى يموت •• فلا نهاية للملل بموت الانسان نفسه •• فنحن نفرز الملل ، كما نفرز العرق •• وكما يفرز العنكبوت خيوطه ••

ولكن لابد أن ندفن الملل حيا ••

لابد أن تدفنه وأنت حى وهو أيضا •• فوداعا •• أيها الملل ••

والى غير لقاء أيها الملل ••

ومرحبا أيها العمل !

***

قبل أن يصدر كتابى « وداعا •• أيها الملل » بشهر كتبت أوضح للقارىء لماذا صدر هذا الكتاب وما المعنى الذى وراءه • والذى ورائى أيضا • وشرحت للقارىء ما الذى عانيته سنوات طويلة من عمرى ، من ملل وقرف وشعور بالغربة والاغتراب والغرابة والمرارة والألفة التى بينى وبين مجتمعات الغجر ، والذين يعيشون فى الدنيا كأنهم غجر •• غجر فى السفوح ، وغجر على القمم •

وتحدثت عن الضياع الذى يهددنى وعن ضياعى فى ضياعى •• وكيف أننى انشغلت بنفسى عن العالم كله •• كيف حبست نفسى فى نفسى •• فى زنزانة هى أنا •• فكنت السجين والسجن

والسجان معا •• وكيف اصطدمت بالناس لأننى لا أراهم •• لأننى أعمى باختيارى •• وقلت اننى مثل رواد الفضاء محبوس فى برميل من حديد يلف حول العالم •• والحقيقة هى أن الدنيا تلف وتدور وأننى كنت جامدا فى مكانى •• وكل شىء جديد ويظهر من جديد •• الا أنا •• وقلت اننى مثل رواد الفضاء مشدود فى حبال والحبال مربوطة فى مسمار •• الحبال هى عيوبى ، والمسمار هو قلمى •• واعترفت للقارىء اننى مللت كلامى •• مللت المعانى التى تدور فى رأسى •• فكل ما فى يدى علب من ورق ملون •• علب فارغة •• أرتبها وأختارها وأبيعها وتبيعنى أيضا • ومللت هذا كله •• حتى يدى ملت هذا الورق ، وحتى الورق مل ألوانه ، والألوان ملت معانيها ••

وفى مقدمة كتابى « وداعا •• أيها الملل » وفى صفحات كثيرة أشرت الى الملل الذى فى حياتنا •• والى أننا يجب أن نعرفه لأنه هو المسئول عن كثير من العنف والشذوذ فى أفكارنا وعلاقاتنا •• وأشرت طويلا الى الذين عرفوا الشعور بالغربة الى الذين عاشوا كأبناء الغجر •• فى السفوح أو فى القمم ، والى الذين عاشوا وحدهم •• وفى كل لحظة يريدون أن يموتوا• لماذا ؟ لأنهم عرفوا الملل •• لأنهم يجب أن يعرفوه ليتخلصوا منه •• لابد أن « نضبط » الملل لكى نقضى عليه •

ولم أقل فى كتابى اننى أطلقت الملل كحمام زاجل ، يذهب ويعود •• وانما كان الملل ناعما كالحمام البرى •• أطلقه الى الأبد •• أحرره منى وأتحرر منه أيضا !

وكأننى بما كتبته أرد على ما قاله النقاد الذين نبهونى الى شىء كان على طرف لسانى !

وأنا لا أرحب بالملل •• وانما أنا أحيى تقليدا فرعونيا قديما : فقد كان أجدادنا يأتون بعروس النيل ويزينونها ويجملونها ثم يلقون بها فى النيل بعد ذلك لتموت •• اننى زينت الملل وزففته الى القبر ، وقد اخترت للملل أثوابا شابة لكى أدفنه بها •• منتهى الجمال الميت •• ومنتهى الموت الجميل ••

وأنا بهذا الكتاب أحاول ــ راجيا ــ أن أنهى أزمتى •• أن أنهى « تأزمى » •• وليس هذا التأزم الا لحظة تنوير ، بعدها تنحل مشاكلى ومتاعبى مع نفسى •

وقد تعبت من معاناة نفسى •• ومن معاندتها أيضا • تعبت من هذه « النرجسية » الفلسفية •• تعبت من التطلع الى صورى فى الماء والهواء وفى داخلى •• تعبت من العناد الإلهى •• من السير فى طريق بلا نهاية ، أو من الدوخة التى عاناها الفتى « سيزيف » كما تصوره أساطير اليونان •• فقد كان يرفع حجرا الى قمة جبل ، ويسقط الحجر منه ، فيعود يرفعه ويرفعه الى الأبد •• بلا نهاية •• بلا حل •• الا العناد والتعالى الأعمى ••

كان لابد من أن أشعل فى النهار عمودا من الدخان ، لكى أرى •• ولابد أن أشعل نارا فى الليل ، لكى أرى ••

وهذا الكتاب ، كان نارى فى الليل ، ودخانى فى النهـار ..
كما فعل النبى موسى وهو فى الضلال والتيه .

وبهرنى واقعنا الجديد ..

وهو يسحب من فوقى غطاء من السحاب .. وهو يدفعنى الى نافذة ومن النافذة أربط أهدابى بشعاعات فجر صادق .. فجر يوليو وكل يوليو ..

ان هذه الهزات تحركنى . كما تتحرك الساعات السويسرية بالاهتزاز .. ان هذه الهزات تملأ تروسى ، وتشيع فيها نبض الزمن ..

وكأننى « توربين » .. كأن هذا الواقع الجديد فيضـانات تنهار من فوق أعلى السدود .. فتديرنى وتنيرنى .. وتصـلح المعانى البور فى أعماقى .. وتحقق العدالة بين قدراتى .. وترفع يدى فأعانق حاضرى ، وأصافح واقعى ، وأصـالح نفسى على الناس وعلى نفسى .. وأتخلص من النظر الدائم الى داخلى ، ومن التطلع الأبدى الى الوراء .

فالنظر الى الوراء له طعم الملح ، كما يقول الاغريق ..

لقد عانيت كثيرا . وجلست من نفسى مجلس القـاضى والمتهم . مع أننى أنا الذى اخترت القاضى ، اخترت له المحكمة، واخترت له حيثيات الحكم والحكم والعقوبة .. وتحيرت بين القاضى الذى هو أنا والمتهم الذى هو القاضى . تحيرت بين

محاكمة من تأليفى واخراجى وسخريتى وبين براءتى التى لا تحتاج الى محاكمة !

وهذه المعاناة هى التى أنبتت الأزمة •

ومعاناة الأزمة هى التى رفعتها الى مستوى التأزم ، الذى هو بداية التنوير •• تماما كما يضىء الفحم الأسود من شدة الاحتراق •• !

وما كتابى هذا الا لحظة تنوير ، أرجو أن تكون لحظة تنوير •• وقد أشارت سطور على الغلاف الى هذا الخلاص ، والى الرغبة فيه •• الى انهاء التمرغ الطويل فى الشاطىء الرملى ، الناعم الملمس واللانهائى والذى أسميه الملل وطعمه القرف • والذى هو الحزام اللامبالى الذى يلتف حول أبناء المدن ، وأبناء الثقافة ، وشهود المراحل الانتقالية فى التاريخ !

***

وكأننى « بوذا » الذى وقف فى الصحراء هادئا جامدا وقد أقفل عينيه وأدارهما الى داخله •• الى أعماقه •• وعندما يفقد الانسان قدرته على النظر ، تنبت العيون والأجفان فى أصابعه •• وهذا ما حدث لبوذا ، فقد جاءت العناكب وعششت فى كفيه •• كعشرات العيون لأصابعه •• ولكن عندما بكى بوذا وتألقت الدموع على خديه •• طارت العناكب ونبتت الزهور • فمن قطرات التنوير ، وبسبب هذا التنوير على وجنتيه •• نبتت الزهور وتفتحت •• من كل لون !

ولا أدعى أننى أنهيت مشكلة الملل ؛ وانما حاولت فقط أن أنهيها أن أعمقها •• وأنا لم أكن أحرك فرشاة على لوحة ؛ وانما كنت مصلوبا على هذه الفرشاة •• وما ألوان اللوحة الا دمى •• وما هذه الفرشاة الا حقنة تنقل دمى الى الورق •• لقد كنت أقوم بعملية « بذل » •• بعملية نقل دم وحياة ونبض ••

اننى فقط حاولت أن « أكثف » هواء فاسدا لكى ألمسه ، وحاولت أن ألونه كالفلورسنت لكى يراه الناس ••

كأننى أدميت يدى لأرى جرحى •

كأننى أشعلت النار فى أصابعى لكى أراها وأرى بها ••

اننى أتيت برمال الملل وغسلتها لكى أتذوقها ، ولونتها لكى تقع عليها عيون الناس • وجمعتها فى كيس ناعم ، فى كتاب •• ثم عصفت بها ، لكى يعصف بها غيرى من الذين يعيشون فى المدن من المثقفين ، من الذين يمارسون الانتقال التاريخى العظيم ••

فلا تزال العواصف ، هى الشىء الوحيد النظيف الذين تبقى للانسان !

تلك الليلة في عنتيبة!

كانت الطائرة تقف على أرض حمراء ووراءها غابات خضراء الأوراق ، زرقاء السيقان • وفوقها سماء صافية ولكنها ليست مغسولة •• كأنها سقف بيت لم يتم بياضه •• وكأن هذه الطائرة مسروقة •• فالناس الواقفون حولها يتفرجون عليها •• وفى أيديهم رماح وبنادق •• ولا يريدون أن يقتربوا منها حتى يجيء أصحابها •• ثم ان الطائرة لم تمش عليها فرشاة لون •• وحتى السلالم التى بينها وبين الأرض •• كأنها هى الأخرى قد صنعوها بسرعة •• أو سرقوها من فوق أحد الأسطح •• أما الطائرة من الداخل فهى أعجوبة •• وقد ركبت هذه الأعجوبة من القاهرة الى الخرطوم الى الكونغو • • والمفروض فى هذا اليوم أن أقطع الطريق بالعكس •

صعدت السلم •• وهذه العبارة من الناحية اللغوية سليمة • ولكن من الناحية الواقعية أو الوجودية ليست سليمة • فأنا لم أصعد السلم •• وانما صعدت اليه •• ففى الطريق الى لسلم مسافة طويلة •• ثم السلم نفسه مشكلة • فأنا محتاج إلى من يرفسنى من الخلف لكى أندفع دون تفكير • لأن ركوب هذه الطائرة التابعة للأمم المتحدة يحتاج الى تفكير • فلا تزال جميع عظامى تتوجع منها • من مجرد ملامستها • من مجرد أن أجلس فيها وأتحول الى كوم من القماش • فى أعلاه وجه

مرسوم عليه رعب مخلوط باستسلام شديد • وفيه نسبة ضئيلة جـــدا من الأمل • وهـــو نوع من الأمل الوقح • أى الذى لا مبرر له ••

والى جوار حقيبتى جلست وتساندت عليها • وحاولت أن أضعها وراء ظهرى فلم أستطع ، فالطائرة لا يوجد بها مقعـــد واحد • ولا توجد بها قطعة خشبية • فوجهها كظهرها • وخارجها كباطنها ! حديد فى حديد • ولا يوجد بها كوب ماء ولا كوب شاى ولا انسان •• ولا توجد بها مصابيح حمراء تعلن أنه ممنوع التدخين • أو ممنوع التحرك ، ولا مصباح أخضر يقول لنا أننـــا فى استطاعتنا أن نتحـــرك أو أن ندخن ، وأن نشم نفسنا • وكأن من الصعب أن نفكر فى هذا الاحتقار الشـــديد الذى يعامل به ركاب هذه الطائرة الدولية • ولكن عنـــدما أطلت النظر فى داخل الطائرة شعرت أن وجـــود مصـــابيح خضراء وحمراء لا معنى له •• لأنه لا يهم أبدا أن أتحـــرك أو لا أتحرك • أدخن أو لا أدخن ، لأننى لا أستطيع أن أخرج يدى من جيبى وأن أمسك أى شىء •• فالطائرة باردة جدا •• كلها حديد بارد •• حتى الهواء بارد كالحديد • وهو عنـــدما يدخل الأنف كأنه أسلاك مدببة •• كأنه حقن •• كأنه يرتاد الرئتين تمهيدا لاصابتى بالمرض المناسب • فى هذه الطـــائرة وعلى ارتفاع عشرين ألف قدم فوق المنطقة الاستوائية •

ولكى أكون صادقا • كان فى الطائرة جندى عجوز ، يلبس القميص على اللحم ولا أعرف بالضبط • وان كنت أتمنى • ما الذى يشربه • ولماذا لا يقدم لى أنا وزملائى ولو كوبا واحدا

من ماء ساخن •• انهم هكذا يفعلون فى الصين واليابان ولم يفعل الرجل ولم أستطع أن أفتح فمى • فأنا فى حاجة الى ارادة• وارادتى ماتت فى جلدها • أو فى جلدى أنا • ولذلك أطبقت فمى على عجزى وابتلعته ونظرت من النافذة فلم أجد الا غابات الكونغو وفيها نقط بيضاء هى أكشاك أهلها الثائرين ••

وتشجعت وتقدمت الى الطيار الأمريكى أسأله أين نحن الآن •• والى أين نحن ذاهبون •• ؟ وأشار الطيار الأمريكى وهو فى غرفته الدافئة جدا • والشمس تدخل من زجاج الطائرة• فتعكس الصحة والشباب والمرح على وجهه وقال : اننا الآن فوق بحيرة فكتوريا •• انها زرقاء عميقة فى لون السماء • والجبال تنحدر اليها بعصبية • وبعد لحظات شعرت أننى أخذت من كرم هذا الأمريكى أكثر مما يجب واستأذنت لكى أعود الى الجراج والى جوار حقيبتى جلست بعد أن تبدد الدفء وعاودنى الزمهرير ولمت نفسى وتكورت وتجمدت وحشرت رأسى فى البالطو • هكذا بدون تفكير تماما كما يفعل الكثير من الحيوانات عندنا • وهذا يؤكد أن الانسان أصله حيوان !

وبدون أى انذار أخذت الطائرة تهبط •• وبعد أن لامست الأرض وجدنا أننا فى منطقة « هو » بكسر الهاء وتسكين الواو •• وكان المطار كسرا فى الجبل وكان الجو دافئا ساكنا • ولم يفتح الطيارون الأمريكان أفواههم بكلمة واحدة وانما أخذ كل واحد منهم بطانيته الكاوتش ونفخها ثم تسلل الى داخلها وهات يا نوم •

ونزلت من الطائرة واستقبلنى أبناء هذه المدينة التى لا أعرف اسمها .. الملابس الصفراء . والطربوش الأحمر الفاتح والزر الذى يتدلى من الأمام . وكانوا حفاة الأقدام . ومن أسنانهم التى تكشف عن ابتسامة . وعيونهم الأكثر لمعانا . حاولت أن أجد تفسيرا لهذه اللامبالاة . أو هذا البرود الذى سبقنى فأجتاح هذه المسافة التى بينى وبين هؤلاء الجرسونات. واكتشفت أننى لم أكد ألمس أرضهم المقدسة حتى انتهزت هذه الفرصة ووجهت اليهم اهانة بالغة . عندما بادرت واحدا منهم وسألته : قل لى يا أخ نحن الآن فى كينيا ؟

وكتم الأخ ضحكة غير أخوية بالمرة . وربما كان كتمانها هو الشىء الوحيد الأخوى . ويبدو أن الكتمان أحد الأمراض المعدية فى هذه المنطقة من افريقيا . لقد كتم بقية الجرسونات ضحكاتهم أيضا . ولكن مع ذلك لم أفهم غلطتى . بل اننى حاولت أن أكابر وكان بودى أن أستعرض معلوماتى الجغرافية وأقول لهم أن هذه ليست المرة الأولى التى أعبر فيها خط الاستواء فقد عبرته بين آسيا وأستراليا وأمريكا عدة مرات .. وحاولت أن أحتمى فى بشرتى البيضاء . ولكن يظهر أن بياضى لا يرتفع الى مستوى الأوربيين الذين يعيشون فى هذه المنطقة وأنا بالفعل لا أعرف أين هبطت هذه الورشة الكبيرة . فهذه هى المرة الأولى التى أسافر فيها الى أواسط أفريقيا . ثم ان الطيارين الأمريكان لم يفتح الله عليهم بكلمة واحدة ربما لأننى لم أسألهم .. وربما لأن هذه المناطق معروفة لهم .. أو حتى اذ لم تكن معروفة . فالطيار يعرف على الأقل . أين هبط . ولابد أن تكون هناك اتصالات بينه وبين المطار . وربما

أنهم تصوروا أننى أعرف هذه المناطق جيدا •• ألست أحد أبناء إفريقيا •

وفى كبرياء مجروحة • وفى وضع يمكن تسميته : بحسنة وأنا سيدك • طلبت منه برادا من الشاى • وكان فى نيتى أن أؤكد له أن يكون الشاى من النوع الانجليزى الطويل • لولا أننى أمسكت لسانى الذى جف من البرد والعطش • فقد خشيت أن أخطىء فى حق الانجليز الذين يستعمرون هذه المنطقة وكل المناطق التى حولها •

وأخيرا تطوع أحد الجرسونات بتصحيح معلوماتى التاريخية والجغرافية وقال وهو يمصمص شفتيه ويعبىء حنجرته : هذه هى أوغندة يا سيد !

ولا أستطيع أن أصور لك كيف نطق كلمة يا سيد •• انها مرادفة لألفاظ شعبية عندنا كثيرة من بينها على سبيل المثال : يا سى نيلة •• أو ياخيبة • !

اذن هذه هى الجنة التى تحدث عنها تشرشل • وطلب من الانجليز أن يموتوا فيها • ويكفى الانسانية كلها أن واحدا قد ترك الجنة • وهو يشير طبعا الى أبينا آدم عليه السلام • أو يشير الى كثير من الأدميين البيض الذين يحزمون حقائبهم فى كل مكان من افريقيا الآن • وتشرشل فى كتابه الذى صدر سنة ١٩٠٨ بعنوان « رحلة الى افريقيا » راح يتغنى بجمال وهدوء هذه البلاد التى خلت من ذباب تسى تسى والتى تزرع القطن والبن • وفى هذا الكتاب اقترح تشرشل انشاء سد

على البحيرة يحجز المياه الهابطة وتتولد منه القوى الكهربية • وقد نفذت فكرته بعد ذلك بأربعين عاما •

هذه هى أوغندة ومساحتها كمساحة ألمانيا الغربية • لغتها اسمها : لوغندة ، وسكانها الخمسة ملايين اسمهم بوغندو وهى بلاد أحسن أنواع التماسيح وأضخم أنواع السيد قشطة • وهذه الحيوانات تملأ بحيرة فكتوريا التى يبعد عنها هذا المطار بضعة أميال • ومن هذه البحيرة ينبع نهر النيل الذى يصب فى البحر المتوسط بعد رحلة طولها أربعة آلاف ميل • ومن هذه البحيرة يقال ان ميكروبات البلهارسيا تنتقل الينا •

وعلى غير ما تتوقع استقبلنا الانجليز فى مطار مدينة عنتيبة استقبالا أخجلنا فقد كانوا فى غاية الدهشة والرقة أيضا •• فقد اندهشوا لأنهم فوجئوا بوجودنا •• ووجودنا كمصريين مفاجأة لهم • فقد أرسلنا قواتنا الى الكونغو • وعبرت الطائرات سماء المستعمرات البريطانية وهبطت تحمى ثورة لومومبا • وتلقى أبناء المستعمرات هذه الأنباء بصورة مزعجة •• مزعجة للانجليز طبعا • ويبدو أن الطيارين الأمريكان لم يخبروا المطار بأن معهم صحفيين مصريين قادمين من الكونغو • فى طريقهم الى القاهرة • وتقدم أحد الانجليز وتطوع أن يصحبنا الى أى مكان فى المدينة التى ترتفع عن سطح البحر خمسة آلاف قدم • فاكتسبت بذلك نفس الهدوء الموجود فى مدينة برن بسويسرة ونفس البرودة الموجودة فى مدينة نوريليا بجزيرة سيلان •• واتجهنا الى المدينة ووقفنا عند أحد محلات البقالة •• وكان صاحب المحل هنديا •• والتف حولنا المواطنون

يسألون عن مصر • وعن الأخبار التى نشرتها الصحف فى مصر • واندهشنا لأنهم يتابعون هذه الأخبار • ويعرفون أسماء الصحف •• ويبدو أنهم كانوا متحفظين معنا • فقد لمحوا الرجل الانجليزى الذى تطوع لخدمتنا وحمل حقائبنا وحرص على اقفالها كلما أهملنا فى اقفالها •• ثم نقلنا أيضا الى أحد الفنادق • انه الفندق الذى رفض أن يسمح للدكتور رالف بانش أن يدخله لأن هذا الفندق مخصص للبيض فقط !

وظل الرجل مرافقا لنا حتى دخلنا الفندق وعندما بدأنا نناقش فى أسعار الغرف تخلى عنا • ولم تكن معنا عملات هذه البلاد أو أية بلاد أخرى • والفندق كأنه منقول منذ ساعات من أحد المدن الانجليزية ، فكل شىء فيه هادىء والناس يتهامسون • حركاتهم منشاة مثل ياقاتهم البيضاء وملابسهم السوداء رغم الدفء الواضح •• فهم يريدون أن يكونوا على صلة ببلادهم باستمرار فهم يرتدون نفس الملابس ويتناولون الأطعمة ويتطوعون للعناية بنا حتى لا نتصل بأهل أوغندة !

ولم ألحظ وجود سيدة واحدة • • حتى التى وجدتها عند الباب سألتنى من أى بلد أنت ؟ فقلت لها وأنا أقرأ ملامحها المألوفة : من مصر ، وأنت ؟ قالت نحن جيران •• وسألتها : وماذا تفعلين هنا ؟ أجابت والمعنى يبدو واضحا من وضع يدها فى خصرها ورفعة رأسها الى أعلى : اننى صاحبة هذا الفندق ••

وأعطتنى كتابا أنيقا ••

وقبل أن أثنى على عبقريتها تمهيدا للسؤال التالى : تقولين أنت جارة لنـــا ؟

فأجابت وهى تنظر ناحيتى بارتياب متجهة الى الشارع فى نفس اللحظة التى سحبنى فيها أحد الزملاء : من اسرائيل !

وكانت بدينة منكوشة الشعر فتذكرت القصة التى كتبهـا سومرست موم بعنوان (نساء مدينة عنتيبة) •• فوصف نساء هذه المدينة بأنهم ثلاثة أنواع : الأرامل والمطلقات لثالث مرة والعوانس •• وأنهن جميعا على استعداد دائم لامتصـاص دم أى انسان غريب !

وقبل أن أرفض الكتاب الذى أعطتنى اياه هذه الســيدة • وأراجع معلومات سومرست موم عن نساء عنتيبة وأثبت جهله التشريحى والســيكولوجى ولو مرة واحدة ، تقدم الرجــل الانجليزى وقال لى : عندنا فى هذه المنطقة من المتاعب ما يكفينا ولسنا فى حاجة الى متاعب تصدرها لنا القاهرة !

وشعرت بأننى شىء متعب • وأننى بوجودى فى هذه المنطقة التى لا أعرفها والتى سقطت فيها لأول مرة ، أســاوى قنبلة ذرية أو مليون منشور ثورى ضد الانجليز • أو أننى رمز لشعب تحرر منهم • وينقل جرثومة التحرر فى اتجاه عكسى لمـــاء النيل من القاهرة الى عنتبة !

وبشىء من الخطورة التى أحسست بها ، حملت حقــائبى واتجهت الى المطار الى الجراج الذى فى انتظارنا • وفى نفس

المكان تكرمشت واستسلمت من جديد الى البرودة وبيـــدى اليسرى أخرجت الكتاب من جيبى •• وبيدى اليمنى رحت أقلب صفحاته ــ وفى تلك الساعات تمنيت لو كانت للطــائرة نافذة مفتوحة لأرمى منها هذا الكتاب الذى يلعن الحركات القومية، والفوضى التى نسميها الاستقلال ، والمراهقة التى نســميها الحكم الذاتى • والغرور الذى نسميه الكرامة ، وعمى الألوان ، الذى نسميه المساواة ! !

وبالأمس عدت الى هذا الكتاب وقلبت فيه وتركته أمامى كأنه يد ممدودة الأصابع فى استعداد لأن تصفع الأقفية الحمــراء التى تطوعت فى أدب لمرافقتنا من المطار الى الفندق • كمــا تطوعت بنفس الأدب للاستيلاء على أوغندة وكينيا وتنجانيقــا وعدن وغيرها •• وبنفس الأدب احتلت بلادنا ثمانين عاما •• أما مناسبة مد يدى وجعلها فى وضع الاستعداد لصــفع هــذا الرجل الأحمر • وهذه السيدة الممصوصة الدماء والأنوثة • فلأن أبناء أوغندة وتنجانيقا وكينيا بدأوا ينزعون جلدهم الأسود • الذى تعلموا من عشرات السنين أنه محكوم عليهم بالســجن وراءه •• فهذا السواد ليس الا قضبانا متراصة محكمة لسجن أبدى •• وأنه لا حرية لهم الا اذا تبدل لونهم ••

ولن يبدلوا لونهم •• وانما سيقلبون صفحة فقط من كتاب التاريخ • لقد استمعنا منذ سنوات الى السطور الأولى منها •• عندما التف الناس حولنا ، فى الليلة الوحيدة التى أمضيناها فى عنتيبــة •

لا نسمح بفضح الكاتب نفسه !

أنا من المعجبين بالكاتبة الفرنسية العظيمة سيمون دى بوفوار وقد قرأت لها كل ما كتبت من قصص ومسرحيات ويوميات ومذكرات . وأرى فيها نموذجا محترما للعقلية المتحررة .. وأراها قمة لم تبلغها أية فتاة حتى الآن فى العالم كله .

وعندما انضمت الكاتبة الفرنسية الى المدرسة الوجودية ، نشرت كتابا تحدد فيه موقفها من هذه الفلسفة الجديدة . وأعلنت أنها دخلت هذه المدرسة بشروطها ، لا بشروط المدرسة . وأنه لا يوجد أى مذهب عقلى يقيد حريتها . وانما حريتها هى القيد الوحيد الذى يحدد حركاتها ونشاطها وهى لذلك ليست وجودية . وانما هى تتناول نفس أفكار الفلاسفة الوجوديين . ولكن على طريقتها هى الخاصة !

يعنى أنها شخصية !

وعندما أصدرت كتابها عن المرأة ، وهو أوفى وأجمل كتاب صدر حتى الآن عن نفسية المرأة ومشكلاتها وتاريخها ، أكدت أن تاريخ المرأة هو فى عبارة واحدة : محاولتها التحرر من الرجل . وقد تحررت المرأة من الرجل . وبقى أن يتحرر الرجل من أفكاره السخيفة عن المرأة . !

يعنى أنها شخصية متمردة .. ولكنها على حق !

وعندما أصدرت قصتها الضخمة التى عنوانها « المثقفون » وعرضت للحياة الفنية والأدبية والسياسية فى باريس وتناولت كل المفكرين فى باريس .. وروت كل شىء بصراحة وفى اطار فنى متين ، قالوا عنها انها جريئة . وكان ينقصها أن تكشف عن وجهها وتقول للناس من هم الأبطال الحقيقيون وما هى أسماؤهم الحقيقية !

يعنى أنها جريئة الى حد ما !

ونشرت بعد ذلك سيمون دى بوفوار اعترافاتها كاملة بعنوان « مذكرات فتاة متزنة » .. ثم أكملتها فى مجلد آخر اسمه « قوة العمر » وفى مجلد ثالث اسمه « منطق الأشياء » ..

ثم كتابيها الصغيرين وفاة أمها بعنوان « موتة هادئة » .

وفى هذه الاعترافات قدمت سيمون نفسها لكل الناس فى العالم .. تحدثت عن نشأتها المتدينة .. وعن أبيها المحامى وأمها المحافظة جدا .. وما زالت تروى تاريخ حياتها . . وكلما مشت خطوة فتحت نافذة . ثم عادت وفتحت بابا .. ثم أزالت السقف كله .. وقفت فى ضوء الشمس بملابس شفافة .. حتى ملابسها الشفافة راحت ترفعها القطعة بعد الأخرى .

ولم تكن سيمون تريد أن تتعرى . لمجرد أنها تريد اثارة الناس وفى اثارة الناس متعة لها . وانما هى تتعرى ، كما يتعرى الذى يريد أن يستحم فى البحر . أو كما يتعرى المريض

أمام الطبيب •• أو كما يتعرى الناس تحت ضوء الشمس •• فهى تعرت نفسيا وجسميا واجتماعيا •• ووضعت صورها العارية فى اطار له معنى • له هدف • له قيمة ••

لقد تعرضت فى طفولتها ومراهقتها وصداقتها للفيلسوف سارتر •• وصداقتها لغيره من الأدباء والفنانين ••

ثم سجلت على نفسها كل ما شعرت به كل ما ضايقها فى حياتها الخاصة كفتاة ، وفى حياتها العامة كأديبة وموظفة •• ثم تعرضت لحياة المرأة فى فرنسا وفى العالم كله ••

***

وليست سيمون دى بوفوار هى وحدها التى انفردت بكتابة اعترافاتها فمعظم الأدباء المعاصرين من الشبان ومن الرجال الناضجين قد سجلوا اعترافاتهم فى أوائل حياتهم ••

وكان المألوف فى القرن الماضى والذى قبله • أن الأديب أو الفنان يسجل اعترافاته ، ثم يوصى بنشرها بعد وفاته • لان فى هذه الاعترافات أحداثا وآراء يخشى من نشرها وهو على قيد الحياة • خصوصا اذا كان يتعرض للدين أو للجنس •

أما فى القرن العشرين ، فقد تغير الوضع تماما • فكثير من الأدباء الشبان ينشر اعترافاته هو بصراحة صارخة • وبعد ذلك يتحدث فى موضوعات أخرى غير شخصية • فكأنه يحرص من أول حياته الفنية على أن يتخفف من العقد النفسية ومن

ذكريات فشله • وقصص فزعه •• وبعد ذلك يتجه بخفة وراحة الى عمله الفنى ••

بل اننا رأينا معظم الأدباء ـ والأديبات خصوصا ـ بعد أن ينشروا قصة أو مسرحية ، يعلنون فى الصحف أن هذه القصة أو المسرحية تعبر عن حياتهم الشخصية •• وأن البطل ليس الا المؤلف • فكأن هذا المؤلف حريص على أن يعلن أن هذه ليست مسرحية لأبطال غير معروفين • وانما هى قصة اعترافاته وأنه يتحدث عن نفسه •

وعندما نشرت فرنسواز ساجان قصتها الأولى « مرحبا أيها الحزن » وأقبل عليها الناس فى كل الدنيا اعترفت فى مؤتمر صحفى أن هذه قصة حياتها • فهى لا تخجل من حوادث القصة • وهى فى نفس الوقت حريصة على أن تعترف للقراء بذلك ••

وكذلك فعل الأدباء الساخطون فى انجلترا ••

واعترف أيضا الأدباء الصاخبون فى أمريكا ••

وكل هؤلاء من الشبان •• ولم ينفرد الشبان بالرغبة الشديدة فى الاعتراف بأخطائهم وخطاياهم وعيوبهم • وانما الأدباء الكبار أيضا ••

ولذلك يمكن أن يقال ان هذا العصر الذى نعيش فيه هو عصر « الاعترافات » أو عصر « الصراحة » وبأى ثمن •• فالكاتب الفرنسى العظيم جان جينيه يعلن بوقاحة ، أى بصراحة عارية : أنه لقيط ولص وشاذ ••

ثم يجىء مفكر عظيم مثل سارتر ويقول : وعبقرى أيضا !

***

وهناك أسباب كثيرة تجعل الكاتب يرفع الكلفة بينه وبين القارىء ويصارحه أو (يواقحه) اذا صح هذا التعبير ..

قد يكون السبب دينيا . فالكاتب يحس أنه أمام رجل من رجال الدين .. وأن الكاتب مخطىء .. وأنه لابد أن يعترف للقارىء الذى يقوم بدور الكاهن . وأن القارىء سيخفى هذا السر الخطير .. الذى اعترف به المؤلف أمام ملايين القـــراء .. ولكن المؤلف لا يتصور هذه الملايين ، وانمـــا يتصـــور قارئا واحـــدا فقط !!

ثم ان الاعتراف يريحه من الناحية النفسية .. فالكاتب يخفف الضغط على نفسه .. يفك عقده النفسية .. ويطلق الوحوش الكاسرة التى احتبست فى نفسه .. ويفتح قفصـــه الصدرى ويتركها تقفز على الصفحات ..

ويعطى بذلك نموذجا للقارىء لكى يفعل مثله .. فلا يخفى شيئا .. وانما يحاول باستمرار أن يحل عقده بأصابعه ، وأن يفك خناقه باختياره .

فنحن لا نزال نعيش فى الظلال الكثيفة التى سحبها العـــالم النمسوى فرويد على القرن العشرين كله . فهو قد علمنـــا أن نتخلص من الرواسب التى تتكاثف فى أعماق الشـــعور .

وعلمنا أيضا أنه لا شىء ينتهى . فكل ما نفعله وما لا نفعله يترك أثرا غائرا فى متاهات النفس ؛ ولذلك يجب أن نفتح له طاقة فى شعورنا . لكى يهرب من الظلام الى النور ويموت ..

كما أن اعتراف الكاتب بأنه كان فقيرا وكان أبله .. أو كان غبيا وهو تلميذ .. أو كان مغفلا وهو زوج .. هذه الصورة التى تشوه الكاتب فى عين القارىء ، لم تعد تضايق أحدا الآن . فكل شىء كان صغيرا . وكان تافها . فنحن نعيش فى عصر الشىء الصغير . فى عصر الانسان الصغير . وفى عصر الذرة .

فتصغير الأشياء والناس لا يحط من قدرها . بل يرسع من قدرها فى عيوننا . فالطاقة الضخمة أصلها ذرة ، والتاريخ تدفعه الجماهير ، والجماهير أصلها الانسان العادى : رجل الشارع أو العامل الأجير .. أى أن القوى المحركة للتاريخ ليست الا هذه الذرة الانسانية أى ليست الا الانسان الصغير ..

فهذا التصغير الذى يقوم به المؤلف ، أو هذا « التضئيل » أو « التتفيه » أو « التقزيم » ــ اذا صحت هذه الكلمات ــ انما هى محاولة من المؤلف أن يقول انه كان لا شىء .. ثم أصبح شيئا .. انه كان تافها . وأصبح قما . انه كان ذرة وأصبح طاقة ، انه كان فردا وأصبح جمهورا .

ويمكن أن يقال ان هذه الاعترافات هى نوع من « النقد الذاتى » .. فالمؤلف ينتقد نفسه علنا ، يعترف بأخطائه أمام

قرائه . وهو فى نفس الوقت يعاهدهم ألا يكون كذلك .. ثم انه يريد أن يقول لكل أصحاب العيوب أنهم ليسوا وحدهم ، فقد كان هو أيضا مثلهم ..

وربما كانت الاعترافات التى يلجأ اليها الأديب هى نزعة مرضية ، فهو يريد أن يعذب نفسه أمام الناس .. وذلك عن طريق تشويه نفسه .. « تبشيع » صورته أمام القراء .. ثم يندم على هذه الصورة البشعة ويبكى حظه . فهو الذى يختار الصورة القبيحة وهو الذى يتعذب بها .. فكأنه هو الذى اختار العذاب .. وهو اختار العذاب لأنه يجد لذة فيه .. تماما كالشواذ الذين يجدون متعتهم الكبرى فى أن يضربهم الناس وأن يكووا جلودهم بالنار .. والمرأة التى تحلم بالرجل الذى يقف على شاربه الصقر . هى امرأة تبحث عن رجل يخيفها ويرهبها . ومن هذا الخوف والرهبة تستمد لذتها ، فالشىء الذى يعذبها ، هو نفسه الشىء الذى تستمتع به . وكذلك الذى يفضح نفسه ، يعذب نفسه بنفسه . وفى ذلك لذته .. فهو الفاضح والمفضوح .. وهو الشقى والسعيد معا !

وفى هذا يقول الكاتب الفرنسى جان جينيه : اننى لست فى حاجة الى جمهور يرمينى بالبيض والطماطم . اننى أستطيع أن أخلق مثل هذا الجمهور وأتفرج عليه وهو يتفرج على صرخاتى ودموعى !

وتقول الكاتبة الانجليزية شايلاديلانى : لو كانت عندى رقبة واحدة لقطعتها واسترحت .. ولكنى أملك عشرات الرقاب أقطعها

كل يوم ، وأنام بعدها وأنا أبكى على دموع القراء •• وهذا هو الوهم السعيد الذى يعيش فيه كل فنان !

•

وسيعون دى بوفوار تقول : اننى أعرف أن هــذه السطور ستجمد الدم فى عروق خالاتى وعماتى •• ولم أفكر فى ذلك الا الآن فقط •• ولكن يجب أن أنسى هذا الحادث المؤسف ، لكى أكمل قصتى !

فهى لا يهمهــا كثيرا أن تجمــد دماء خالاتهــا أو عماتها • ولايضايقها أن يقع هذا الحادث الأليم • وانما يضايقها أكثر ألا تتمكن من اكمال قصة صراحتها مع نفســها ومع القراء ••

وربما كانت أسباب الاعترافات هى النزعــات التــاريخية الموجودة عند كل الناس • فكل شىء فى عصرنا له تاريخ أو يجب أن يكون له تاريخ أو من الممكن أن يكون له تاريخ •• ولذلك يبحث كل انسان عن طفولته ليجد لقطة بداية • ومن هذه البداية يتصاعد الى نهاية •• الى قمة عبر ســلم من الكفاح ، لابد أن يكون السلم من الدموع والعرق والمصاعب وسوء الحظ والصدف السيئة ومن هذا الجو التاريخى تظهر لنا صورة مرسومة بعناية • ولابد أن يستعين فى رسم هذه الصورة بكل الألوان •• خصوصا الأسود والأحمر •• تماما كما خلق الله العالم من الظلام ، ثم أكمل العالم بأشعة نور الشمس •

وتاريخ كل انسان يبدأ بتواضع شديد وينتهى بغرور شديد •• بل ان التواضع نفسه نوع من الغرور • فالذى يتواضع يريد أن يقــول انه أكبر من هــذا بكثير وأنه لا يضايقه أن يكون

متواضعا . لأن التواضع لن ينال منه شيئا .. وأن التواضع من أخص صفاته .. وهذا هو منتهى الغرور .. !

***

وأصدق صورة لنفسية هؤلاء . « المعترفين » .. هى قصة رواها الاغريق من ألوف السنين .

فقد كانت هناك تسع أخوات مقدسات وكان يطلق على هؤلاء الأخوات اسم ربات الفن .. وكن فتيات عذارى أطهارا معظم الوقت .. وكانت من بينهن واحدة اسمها كليو .. وهى ربة التاريخ وكانت ترتدى فستانا طويلا . أطول كثيرا من فساتين أخواتها . ولسبب لا تعرفه أطلق الآلهة على هذه الفتاة وحدها عددا من القرود تداعبها باستمرار وترفع أطراف الفستان فى أوقات غير مناسبة . وكانت كليو هذه تضيق بوقاحة القرود .

وفى احــدى المرات اتفقت مع القرود أن يعروا جانبا من الفستان فى مناسبة معينة . وبعد ذلك اتفقت مع القرود أن يعروا فستانها كاملا فى حضور بعض الآلهة والأبطال . وفى احــدى المرات بحثت عن القرود فلم تجدها .. فقد كانت حريصة على أن تتعرى أمام أحد الأبطال . ولكن لم تشأ أن تتعرى باختيارها . وانما كانت تريد القرود أن تتولى عنها ذلك . ولما حضرت القرود انهالت عليها ضربا . وظن القرود أن ثوبها قد رفعهو الهواء . فحاولت القرود أن تغطى جسمها العارى . فزاد غضبها وثارت . ومدى يديها وتعرت .. وتعرت .. ولما لم تجد البطل أمامهـــا راحت تبكى على جمالها الذى لم يره أحد ولما تذكرت أن لها

ساقا مشوهة بكت مرة أخرى على ساقها التى لم ترعب أحدا من الناس !

ان العذراء كليو بروحها وصراحتها وحرصها على أن تتلذذ بعذاب الآخرين . ليست الا من بنات القرن العشرين .. من بنات عصر الفضائح الأدبية وغير الأدبية .. !

ضيف على السد العالى

ذهبت الى أسوان أستريح فى ضيافة الذين لا يستريحون • لأنهم يبنون السد العالى • وهذه هى المرة الثانية التى أسافر فيها الى جنوب القاهرة • فقد كانت المرة الأولى يوم سافرت مع قواتنا الى الكونغو !

ولم أكن أتصور أن أسوان بهذه الروعة • فيها كل مظاهر القوة : عضلات من صلب وأعصاب من حديد • ولحم من جرانيت • ودم من نار • وعظم من أسمنت مسلح •• وفيها كل ملامح الهدوء والبساطة والمتعة : الورود والزوارق الشراعية والسماء الصافية جدا • والهواء الذى جف ريقه • فهو لا يعرف الرطوبة • وفيها شعوب الدنيا كلها جاءوا ينزعون ملابسهم ويستحمون فى فيضانات الراديوم التى تنهال على صخور أسوان ••

ففى أسوان أناس فى غاية الرقة والطيبة •• ولكن أعمالهم تدهشنى •• فهم ينسفون الصخور بالديناميت وينقلون حطام الجبال فى العربات والأوناش ثم يسحقون الصخور ويعجنونها ويخبزونها فى الأفران •• ثم يصبون الماء على النار • ويستخرجون الكهرباء من الماء • ويحبسون الهواء ويطلقونه فى الأنفاق ••

فالذى يحطمونه يحتفظون به مرة أخرى فى الأسلاك والذى يبنونه اليوم، كل ما يبنونه اليوم والأمس وقد أغرقوه فى شهر مايو أمام عينى الرئيس جمال عبد الناصر ! ..

كل شىء ينتقل فى أسوان من والى السد العالى . أو بمناسبة علو السد : عشرات الألوف من العمال والمهندسين والخبراء . بعائلاتهم قد انتقلوا الى جوار السد .. مجندين طول النهار والليل . أما معبد أبو سمبل الذى بناه رمسيس الثانى الذى حكم مصر ٦٧ عاما . وأنجب مائة طفل . سينقل الى مكان أعلى من مستوى النهر بعد اتمام السد العالى ..

ومعبد كلبشة نقله الألمان قطعة قطعة من مكانه الى شمالى السد ، وفى مكان مرتفع أيضا .. واحتفظوا للمعبد بكل مداخله القديمة ..

وأبناء النوبة انتقلوا من أماكنهم التاريخية الى مستعمراتهم الجديدة بالقرب من كوم امبو « ٢٥ ألف مسكن و١٢٨ دكانا و ٣٣ مسجدا و٣٧ مدرسة » . وقد هاجر أهالى النوبة من بلادهم قبل ذلك عند انشاء خزان أسوان سنة ١٩٠٢ ثم هاجروا مرة أخرى عند تعلية خزان أسوان سنة ١٩١٢ وهاجروا مرة ثالثة عند تعلية الخزان للمرة الثانية سنة ١٩٣٣ وهذه هى المرة الرابعة . وقد زرت بيوتهم الجديدة .. انها نظيفة أنيقة . ولها أبواب وردية رقيقة ليس لها ترباس ضخم، وهذا ما يضايقهم .. وليس فى هذه البيوت « مضيفة » لاستقبال الضيوف . أو على الأصح ليست هناك المضيفة التقليدية المنفصلة عن البيت .. والتى يراها كل أهل

القرية فيعرفون أن صاحب البيت عنده ضيوف •• أى أنه رجل مهم وكريم !

على كل حال انتقل أهالى النوبة الى قراهم الجديدة ولم يفقدوا الا تراب الخيـــام • والا مقابر موتاهم • وأهـــالى النوبة كانوا القوات الضاربة لجيوش الفراعنة • وكانوا أيضا تجارا للعـــاج والذهب • وحكموا مصر مائة سنة « ٧٥٠ ــ ٦٥٠ قبل الميلاد » وكان ملكهم بيانخى أشهر نوبى فى التـــاريخ وكان يحب الخيول ويدفنها فى مقابر فخمة • وكان حاكما عظيما • ويبدو أن النوبيين لهم رأى آخر فيه •• فهم أولا لا يعرفونه وثانيا لم أجد عندهم حصانا واحدا !

حتى المثل القديم الذى يقول : اذا لم يأت الجبل الى ابراهيم ذهب ابراهيم الى الجبل •• لم يعد صحيحا •• لقدتغير ككل شىء فى أسوان ، فالمثل يجب أن يقول : اذا لم يأت الجبل الى ابراهيم فلا داعى لأن يذهب اليه •• وانما سيجىء الجبل رغم أنفه ! وهم فى أسوان ينقلون الجبال من شاطىء الى شاطىء •• فجبال الرمال يلقون عليهـــا المـــاء • ثم يدفعون الرمال المبللـــة • أو عصـــير الجبل • فى أنابيب عبر النيل • لتتحول الرمال الى جبل آخر من صنع الانسان !•

وفى الليل تبدو منطقة السد العالى مثل فرح هائل •• مولد لأحد أوليـــاء الله • أو كالليلة الكبيرة لمولد أولياء الله الصـــالحين •• فالناس يذهبون بالنار ويصرخون ويتعلقون من السقوف والسيارات والجرارات والمواسير •• ويرددون ألحانا تشبه تراتيل الكنائس••

ويكرون الجرانيت كأنه حلاوة حمصية ويعجنونه كأنه حلاوة سمسمية ..

وفى الجانب الآخر من أسوان . وعلى نهر النيل وفى مواجهة جزيرة الفانتين وضريح أغاخان واستراحة البيجوم . وحديقة النباتات .. يوجد فندقان مختلفان .. فندق كتراكت القديم بدفئه الشديد ولونه البنى الذى يمتص حرارة الشمس ، فيحس الناس أنهم فى صيف القاهرة الذى يشبه شتاء أسوان .. وفندق كتراكت الجديد الذى فيه كل شىء بالزراير .. تماما كأجهزة السد العالى . تضغط على زرار فتضىء كل مصابيح الغرفة تضغط على زرار آخر فتسمع الموسيقى .. على زرار ثالث فيجىء الجرسون ومعه براد شاى ، هذا البراد هو نموذج للحالة النفسية فى أسوان كلها .. فالبراد ليس لغطائه ثقب ولذلك يتساقط منه الشاى فى كل مرة تحاول أن تصبه فى فنجان .. وقد طلبت من مدير الفندق أن يخرم البراد . وذكرت له أنهم فى الناحية الأخرى يحقنون الجبال بالديناميت . وأنهم يخرمون الجبال والحديد فى دقائق .. وظللت أياما أنتظر رؤية هذا الخرم ـ طاقة القدر هذه ـ ولكنى لم أعثر له على أثر .. بينما ظل ألوف العمال يمزقون الحديد كأنه ورق .. ويمزقون الجرانيت كأنه براد شاى .. فهناك سرعة هائلة وهنا بطء شديد ينافس الصخور النائمة فى الماء .

وهنا الزوارق الصغيرة التى يقبلها الهواء مره على خدها الأيمن . ومرة على خدها الأيسر .. وتمضى فى سلام بين صخور جلست عليها سيدات فى ملابس سوداء يغسلن ملابسهن البيضاء والملونة . تماما كما تفعل كل نساء الدنيا .. فى ألمانيا وايطاليا

والسويد .. والملابس السوداء المتزوجات لأنها صورة للحشمة. والملابس الملونة للفتيات . وملابس الفتيات هى نسخة طبق الأصل من الفساتين التى اكتشفها أحد الايطاليين فى « وادى الملكات » . هذا الايطالى اسمه أرنست اسكباريللى .. وهو من نفس الأسرة المشهورة التى تصمم الأزياء وتبتكر العطور فى أوروبا !

ومعظم الأجانب جاءوا الى هذه المنطقة لكى يروا « أبو سمبل » قبل أن نرفعه الى قمة الجبل . وقبل أن يكتمل السد العالى .. ولكى يشحنوا أجسامهم بكمية من الراديوم . ويقال ان أسوان بها كمية غير عادية .

وقد سمعت تفسيرا يقول : ان شمس أسوان هى هى فى الدنيا كلها . لكن الشىء الجديد هو انعكاس هذه الشمس على صخور من الجرانيت .. فالجرانيت هو مصدر الاشعاع الراديومى الذى يقوى أجسام العواجيز الذين جاءوا يقترضون مبلغا من الشباب فى رحلتهم الى نهاية العمر !

وتحت نافذتى أرى عددا من العمال يدفعون أمامهم برميلا كبيرا بنفس الطريقة التى استخدمها الفراعنة منذ ألوف السنين .. فهم يضعون البرميل على أعمدة من الخشب . ثم يدحرجونه الى الأمام . وهى عملية تستغرق فى العادة يوما كاملا ..

وقد سمعت عن شارع صغير يعترضه حجر من الجرانيت .. والحجر كبير .. وظل هذا الشارع شهورا لا يقترب منه أحد . وانما يلف حوله الناس بسياراتهم كما تلف مياه النيل حول الجنادل .. فقط يلف ويدور ولا يستطيع أن يحركها .. ولكن حدث فى

يوم أن جاء بولدوزر وأزال هذه الصخرة فى دقيقة واحدة وانفتح الشارع وسارت فيه الأقدام والعجلات ..

فقد ظلت الصخرة الواحدة . فى مكانها شهورا . دون أن يزحزحها أحد .. ثم جاءت آلة ضخمة فزلزلتها .

بهذه السرعة تنفتح الشوارع .. وبهذا الصبر يواجهون العقبات فى أسوان ..

* * *

وأما السماء فهى دائما صافية .. والألوان صريحة .. وأما الشمس وخصوصا الشمس .. فهى تظهر فى أسوان عارية تماما أو كأنها ارتدت ألوانها على اللحم .. عند الغروب وعند الشروق .. فيبدوا لونها كهرمانيا صارخا .. خليطا من الأحمر الدامى والأصفر الذهبى والأزرق النيلى والأسود الغطيس .. أما فى القاهرة فهى لا تظهر عارية .. وانما تخجل من ألوانها الصريحة .. أو اذا ظهرت ألوانها لكهرمانية .. فهى تضع عليها بالطو من هباب المصانع وبنزين السيارات متوارية وراء العمارات عن عيوننا الحمراء التى لا تقوى على النظر اليها !

* * *

ولكن أسوان متعة لمن يرى . ومتعة لمن لا يريد أن يرى . متعة لأن تتفرج على الذين يتعبون من أجل راحتك .. ومتعة أن تعيش مع هؤلاء الذين دفعوا غاليا جدا ليبيعوا الكهرباء بالقروش والماء بالملاليم .. لكل الأجيال القادمة .

ولابد أن يسافر الى أسوان أكبر عدد ممكن من أبناء مصر •• من كل الهيئات والمهن • من الرجال والنساء والشبان •• يجب أن يروا السد قبل أن يكمل •

* * *

قلت للرجل الذى يدير هـذا المشروع التـاريخى وعلى وجهه ابتسامة أسوان الهادئة • وفى أرقامه واصراره ملامح أسوان الجديدة : ان الناس يجب أن يروا هذا العمل الجبار فى أسوان•• وبصـورة أخرى غير التى تراها فى دور السينما •• ففى دور السينما تطالعهم أفلام صغيرة ثابتة جامدة عن السد العـالى •• فكل شىء فى دور السينما يتغير الا شيئين : كلمة « استراحة » وأفلام السد العالى •• فما رأيك ؟

ولا يسعنى وقد اسـترحت فى أسـوان فى ضـيافة الأيدى الحديد • والأرجل الصلب • والعقول الألكترونية • الا أن أردد الجملة التى قالها يوليوس قيصر فى مسرحية «كما تحب لشكسبير» : لقد ذهبنا ورأينا وانتصرنا •• فى بور سعيد وفى أسوان وفى كل ميـدان ••!

عاش يموت .. ومات يحيى!

كل ما تعرفه عن هذا الرجل أنه مخترع سويدى وأنه ترك ثروة ضخمة كسبها من بيع الديناميت وأنه قبل أن يموت أوصى بأن تكون هناك خمس جوائز للنابهين فى الطب والكيمياء والفسيولوجيا والأدب والسلام ، وأنه بعد وفاته اختلف الناس على هذه الوصية . ومعظم أهل السويد اتهموه بالخيانة الوطنية لأنه ينفق أمواله على أناس أجانب .. ولأنه أوصى بأن يكون برلمان النرويج هو الذى يختار الرجل الذى يمنحه جائزة السلام ، وأن عددا كبيرا من أقارب هذا الرجل اتهموه بالجنون . بل من ملك السويد استدعى أحد اخوة المخترع الكبير وطلب اليه أن يغير الوصية ، وخصوصا الفقرة التى جاءت عن السلام . لأن المرحوم كان قد كتبها تحت تأثير فتاة مغامرة ..

ورفض أخوه ألفريد نوبل . تغيير حرف واحد من هذه الوصية التى حرمتهم من كل الملايين التى تركها من بعده .

فهو بالاختصار أحد كبار المخترعين ، وأحد كبار المحسنين ..

ولكن ليست هذه هى صفات الرجل نفسه . وانما هى صفاته من الخارج . فالاختراع هو صفة تنطبق على علاقته بتركيب المادة ، والاحسان صفة تنطبق على علاقته بالفلوس ، غير أن الفريد نوبل انسان آخر مختلف تماما عن هذا المخترع الذى لم

يدخل مدرسة ولا جامعة • وانما كان طفلا حساسا رقيقا مريضا • عاش وحيدا معظم الوقت • وتؤذيه أصوات الناس ، وكان يهرب من أبيه ومن اخوته لأسباب لا يعرفونها •

وكان أبوه رجلا مخترعا •• وهو أيضا لم يدخل مدرسة •

ولكن كان أبوه أكثر قلقا منه ، وكان لا يهدأ ولا يبقى فى مكان واحد • فقد حمل أولاده وسافر بهم من السويد الى روسيا ، واشترك فى الدفاع عن السواحل الروسية ، طول فترة حرب القرم • وأنشأ مصنعا للأسلحة هناك • ثم هو الذى قام بصناعة ألغام الأعماق ووضعها بالقرب من شواطىء البحر الأسود • ثم انفجر المصنع الذى يملكه • وعاد الى السويد • وفى السويد كانت الحياة أقسى • فالمصنع الذى أقامه فى السويد انفجر هو أيضا ••

وفى ذلك الوقت كان الابن ألفريد نوبل مشغولا بأبحاثه عن النتروجليسرين •• وعن طريقة توصل الى اختراع الديناميت •• ثم البارود عديم الدخان ، وسجل الابن اختراع الديناميت • وبدأ بيعه لكل شعوب العالم • وتعالت الانفجارات فى أوربا وأمريكا ، وتكاثرت الأموال أيضا • وأقام الابن ألفريد نوبل فى باريس • ثم استدعاه أبوه ليعاونه فى حل مشكلة كيميائية ، وعاد الابن وسجل انفجارا جديدا هدم المصنع وقتل أخاه الأصغر ، وبعد ذلك بأسابيع مات أبوه •

ولكن متاعب الابن ألفريد نوبل لم تنته • فهو يشعر فى أعماقه بأنه حائر وضائع • وحكاياته الكثيرة التى يكتبها باللغات الأربع التى يجيدها تماما ، تكشف كيف أنه انسان آخر لا يتوقف عن

البكاء على حاله • وعلى شبابه • وعلى حياته التى ضاعت فى المعامل • وفى الأحماض وفى النار وفى الحديد •

فهل تصدق أنه هو الذى يقول : تقولون أصدقائى أ أين هم أصدقائى لا أحد صديق لأحد • اننى أستطيع أن أجد بين الكتب ألف صديق ان الكلاب التى تأكل لحوم البشر أرق قلبا من البشر • ان الديدان التى تأكل لحوم الكلاب أرق قلبا من البشر ••

ويقول أيضا : اننى أفضل الصمت التام على أى كلام •• فالأشجار والغابات هى أعز أصدقائى • اننى فى بعض الأحيان أندهش لماذا خلقت الطبيعة للانسان لسانا • لماذا لا تجعله يتكلم بيديه ، وبلا صوت ••

ليست هذه شكوى الرجل الذى صنع الانفجارات والضوضاء •• وانما هى شكوى رجل رقيق جدا ، وأعصابه مرهقة•• بل هى شكوى الرجل الذى كره أباه ، وتعذب بسببه ومن أجله ••

ان الفريد نوبل قد أعجب بالشاعر الانجليزى شيلى اعجابا لا نهاية له • بل انه كان يحفظ شعر شيلى ، ويكتبه بكل اللغات التى يعرفها ، ويضعه فى جيبه ، وكان ألفريد نوبل ينظم الشعر أيضا • ومن الغريب جدا ، أنه أحب مسرحية للشاعر شيلى اسمها (بياتريس تشنشى) وهى مسرحية رجل يعذب أولاده تعذيبا شديدا • وتكاد تكون متعته الوحيدة فى دموعهم وصراخهم • وقد مات اثنان من أبنائه • وجاء الدور على ابنته فقررت أن تتظلم الى البابا • ووقفت أمام البابا تشكوه بالفعل ولكن الأب اتهمها بالجنون وهرب •• واتفقت الابنة مع خطيبها الراهب على قتل

الأب وتآمرا عليه وقتلاه . ثم صـدر الحكم البابوى . باعـدام الابنة وأمها واخوتها أيضا .. وهى مسرحية مجنونة مخيفة . هذه المسرحية أعجب بهـا ألفريد نوبل . وكتب مسرحية أخرى شبيهة لهـا اسمها « اللغز » وفى هذه المسرحية لا يشكو فقط من وحشية الآباء ، أو من وحشية أن يكون الانسان أبا قاسيا لأبناء فى غاية الرقة ، ولكنه بكى على قلبه ، وعلى حبه الوحيد ..

* * *

وربما كان حبه الوحيد هو فتاة نمسـاوية اشتغلت سكرتيرته بعض الوقت . فعندما كان فى النمسـا . نشر اعلانا فى الصحف هذا نصه : « غنى عجوز ، فى حـاجة الى فتاة مثقفة لتعـاونه فى عمله » .. ولم يكن عجوزا فى ذلك الوقت . وانما كان فى الأربعين من عمره ، ولكنه شعر بأنه عجوز جدا ، وأنه فى نهاية أيامه ، فقد ازدادت عليه وطأة الحالات العصبية التى كانت تهزه كأنه قنبلة يدوية توشك أن تنفجر .

وفوجىء بأن فتاة نمساوية قرأت الاعلان وتوجهت اليه على الفور ، وكانت الفتاة من أسرة نبيلة . ولكن مال عليها الزمن فلم يترك لها سوى ألقاب النبلاء .. وبعد سنوات من العمل مع ألفريد نوبل سألها فى يوم عما اذا كان قلبها خاليـا ، أو كان مشـغولا وبصراحة أوجعته قالت ان قلبها مشغول بحب أحد النبلاء .. وأن أهل هذا النبيل رفضوا زواجها به لأنها فقيرة . ونصحها ألفريد نوبل بأن تتزوج هذا النبيل . وسافر من فيينا الى باريس . ومن باريس الى السويد ، وفى أعماقه جرح هـائل ، ظل ينزف حتى نهـاية حياته .

وكتب اليها خطابا يقول فيه : لقد فكرت فى كل شىء ، ولا يزال من رأيى أن تتزوجيه . تزوجيه وعيشى مع الرجل الذى تحبينه وأنا أستطيع أن أساعدك أيضا .

ولكن أحدا لم يكن فى استطاعته أن يساعد الرجل الذى يتنقل بين السويد وفرنسا والنمسا وألمانيا وروسيا ، يبنى المصانع ويحاسب على نصيبه من اختراع الديناميت ، ثم يتولى تصميم أصابع ديناميت جديدة .. ولكن عندما يعود الى نفسه فانه ينظم الشعر ، ويكتب الصفحات الأولى من قصص ومسرحيات لم تنتشر بل ان أهله رفضوا نشرها بعد وفاته ، مع أحد القساوسة قد قرأ هذه القصص ولم يتصور أبدا أن الذى كتبها رجل أجنبى ورجل كيميائى مثل ألفريد نوبل ..

وبعد أن غادر باريس هاربا الى احدى الغابات كتب خطابا الى من كانت سكرتيرته يقول فيه : لولا هذا الشىء الذى لا أعرفه لفضلت أن أموت ، ولكن فى داخلى قوة تمنعنى من الموت . انك تعرفين أن أفكارى الدينية مختلفة عن معتقداتك . ولكن عندما يتسع وقتى سأفكر فى الأمر .

ولم يتسع وقته ، ولم يفكر فى الأمر . ثم قابلها بعد ذلك هى وزوجها فى سويسرا وكانت مشغولة بالدعوة للسلام ، واشتركت ضمن لجان عديدة فى الدعوة الى المحبة بين الناس ، ويبدو أن ألفريد نوبل قد تأثر بشخصيتها وبعقلها وبحبه لها .. فهى التى دفعته الى أن يجعل للسلام جائزة ضمن وصيته .. وقد فازت هذه السكرتيرة بجائزة السلام سنة ١٩١٥ أى بعد وفاة ألفريد نوبل بأحد عشر عاما .

وقد عاش الفريد نوبل غريبا . فلا هو أقام فى السويد ، ولا هو كان يتكلم بلغة السويد ، وانما كان يتكلم ويكتب بست لغات .. وكانت له بيوت فى معظم الدول الأوربية ، وعندما قرر أن يستقر فى بلاده أقام بيتا ولم يقدر له أن يعيش فيه يوما واحدا ..

وهذا الرجل الذى اخترع الموت وباعه وكسب منه الملايين ، كان يخاف من الموت ، وكان يخاف أن يموت وحده ، وفى ذلك يقول، وكأنه ريفى ساذج ، ولكن الموت يجعل الانسان ريفيا ساذجا . بل طفلا عاجزا . يقول : أننى أخاف أن أموت وحدى . ألا أجد أحدا يهمس فى أذنى بكلمة ، أو يلمس يدى برفق .. أو يطبق عينى عندما أموت .

والذى كان يخاف منه ألفريد نوبل . صاحب جائزة نوبل ، ومخترع الديناميت . قد حصل حرفيا . فقد مات نوبل فى الفيلا التى كان يملكها فى سان ريمو بايطاليا يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٦ ولم يكن حوله الا خدمه الفرنسيون ، وقبل أن يموت عجز عن الكلام نهائيا . وراح يضرب الجدران بيديه ويشير الى الذين حوله بأن يبعثوا ببرقية الى بعض الناس يخبرونهم أنه سيموت .. ولم يحدد طبعا من هم هؤلاء الناس . ثم راح نوبل ينطق بكلمات لا أحد يعرف ما اذا كانت روسية أو ألمانية أو اسبانية .. ثم وضع يده على رأسه مرة وعلى قلبه مرة ..

وسقط رأسه الى الوراء .. ومن الغريب أنه هو بحـــركة لا شعورية ، أو بما تبقى فيه من شعور ، مد يده وأقفل عينـــا واحدة . وبقيت عينه الأخرى مفتوحة .

وجاء أحد القساوسة وصلى على جثمانه . هذا القسيس فاز بجائزة نوبل للسلام بعد ذلك .. وعندما انتقلت جثته الى السويد، انفجرت قنبلة أخرى . هذه القنبلة هو الذى أعدها واختار لها المكان والزمان . هذه القنبلة هى وصية أخرى ، وفى هذه الوصية يطلب أن يقوم الأطباء بكشف الغطاء عن جسده ، واعادة فحصه من جديد . حتى لا يدفنوه حيا . فقد مات أبوه قبل الأوان . لقد دفنوه حيا !

وعندما كان نوبل يضع يده مرة على قلبه ، ومرة على عقله .. كان يعتذر لأحدهما بالنيابة عن الآخر ..

أو كان يقول أن قلبى حطمنى . أما عقلى فقد حطم الملايين ..

أو كان يقول : ان الملايين التى كسبتها بعقلى ، تركتها بقلبى . فقد كانت حياتى هى انتصارا هائلا لأحد العلماء ، وفشلا ذريعا لأحد المحبين !

ولا يذكر الناس الا العالم الذى اخترع . ولا يعرفون المحب الذى فشل .. لا يعرفون الا الرجل الذى عاش بأسلحة الموت ، وينسون الرجل الذى مات بالحب ! .

لا مشاكل .. لا أدب !

عندما صدر ديوانه الأول « قصائد من خشب » كتبت عنه مقالا طويلا ، فى مجلة « الهلال » ووضعته بين أفراد الأسرة الثائرة على كل ما هو قديم .. فى أوربا وأمريكا . وتمنيت أن يصدر له ديوان آخر . أو قصة أخرى لكى أراه أوضح . وأسمعه أكثر . فقد أحسست أن فى هذا الشاب شيئا جديدا . وأدركت العلاقة الرائعة التى تربطه بالحياة : انها علاقة الفزع .. الفزع من الحياة ، وفزع الحياة منه . فهو يمد لها كل حواسه ، وهى تسحب منه كل معانيها .. وأيقنت أننى أمام شاعر صغير ، يدبدب بعواطفه فى دروب لبنان ، وشوارع بيروت ، ويضرب رأسه فى جدران بنوكها المليئة . وفنادقهـا الشامخة . ولم أكن أعرف أنه عندما كان يمط شـفتيه بين السطور . أن هذه حركة اشمئزاز عابرة ، ولكن عندما عرفت الشاعر عن قرب ، تبينت أنه « يبصق على المعانى السلبية التى تدور فى أعماقه » .. كما يقول الشاعر أراجون . فلا شىء فى مدينة بيروت له صلة بلبنان ؛ فهى مدينة عجيبة . انها مدينة تجارية « منزوعة العواطف » .. كل شىء فيها بيع وشراء .

وقبل أن ألتقى بشاعر القصائد الخشبية ابراهيم سلامة ، أرسل لى برقية من لبنان يحدد فيها موعدا للقائنا . فكانت البرقية فى ذاتها شيئا غريبا . ورأيت الشاعر الصغير . وكانت شعراته السوداء ، كقصائده ، لا هى موزونة ولا هى مقفاة ..

وانما كانت أبياته تتدلى على جبهة صفحاته كشعره • وكنت قد نسيت الشاعر والديوان •• ولكنى بالأمس تذكرت فرحتى به وبهجتى بصوت يصرخ ، بمعنى يثور ، بشاب يهبط من الجبال يدق جدران المدينة انه لن يحطم المدينة • ولكن يكفى أنه يحاول أن تردده بين المطعم والترام والجبل ، يشبه معنى حائرا • سخطا عاما يبحث عن أب يتبناه •

وجاء الشاعر الخشبى ورأيت شبابه الحائر • وقلقه الملتهب ونظراته التائهة • اننى أعرف هذا كله • اننى لست فى حاجة الى أن أعرف اسمه أو بلده • اننى أعرف هذه المعانى • عشتها ، قرأتها ، احتضنتها • سهرت معها فى قصص الأدباء الشبان فى انجلترا وأمريكا وفرنسا وأسبانيا ••

وسألنى ابراهيم سلامة عن رأيى فى أدب لبنان ••

اننى لا أدعى العلم التام بكل ما تصدره المطابع النشيطة فى لبنان •• فهو طبعا لا يقصد الكتب المترجمة ، وان كانت الترجمة نفسها عملا يدل على ذوق المترجم وعلى موقفه • ولكن يبدو أن المترجم اللبنانى يترجم ما يريده المشترى خارج لبنان ، وليس فى لبنان • فهو ينتج للتصدير وليس للاستهلاك المحلى • أو بعبارة أخرى : الترجمة نوع من « التعليب » أو من التعبئة الجديدة • فالبضاعة تجىء على شكل كميات كبيرة ، ويقوم الناشر اللبنانى بوضعها فى صناديق لبنانيـــة ، ويصدرها الى الخارج • كالتفاح الذى يصلنا من لبنان •

أما اذا كان المقصود بأدب لبنان هو هذه الكتب الصغيرة أو القصص التى تظهر من حين الى حين ، فلا أعرف من الذين

يكتبونها ، ولا أين يعيشون • ولا ظروفهم النفسية والاجتماعية •• ولكنها على كل حال صرخات فى وديان عميقة مهجورة •

وفهمت من الأديب اللبنانى الصغير أن فى لبنان نوعين من الأدب : أدب الضيعة وأدب المصطبة • والضيعة هى القرية والمصطبة هى التربيزة الموجودة فى عشرات البارات فى منطقة الروشة فى بيروت حيث يجلس أناس يتحدثون بالساعات ولا يكتبون حرفا واحدا • وهم فى الغالب لا يتحدثون اللغة العربية ؛ وليس من بينهم واحد استمع الى أغنية عربية • أما الأدباء الصارخون فهم أبناء الضيعة •• أبناء القرى ، الذين يهبطون من الجبال ليلقوا نظرة ثم يعودوا الى قراهم يلعنون هذه الحياة •• هذه البورصة المجنونة التى لا يهتم فيها أحد لا بالأدب ولا بالفن ولا بالحياة •• لا حياته هو ولا حياة أى انسان آخر •

واذا حاول أديب من أبناء الضيعة أن يشغل نفسه بقضية سياسية أو أدبية •• ثار عليه أبناء المصاطب وطلبوا اليه أن « يدبر جيبته » •• أى يفكر فى طريق لملء جيوبه بالفلوس •• وكثير من الشبان ترك التفكير فى قضايا لبنان ، واشتغل بالتجارة لأن التجارة تدبر الجيب ؛ والأدب يخرب الجيب !•

واذا صح أن الأدب صورة من المجتمع •• فلا شك أن بيع الثقافة وتعليبها وتحويلها ؛ كالعملات ، الى البلاد الأخرى ، هو أهم علامات المجتمع اللبنانى والثقافة اللبنانية • فبيروت تعتبر منطقة ترانزيت بالنسبة للآداب العالمية • فلبنان يشبه « الترانسفورمر » الذى يحول التيار العالمى الى تيار عربى

وبلهجة غريبة مرتجفة ، لا هى أوربية ولا هى عربية •• فالدقة لا تهم • ولكن السرعة هى التى تهم ، مع الأسف الشديد ! •

وهذه هى مشكلة الأدباء الشبان الذين ملوا الحياة فى المدينة والذين يخافون من بيروت على كل لبنان • ويخافون على كل لبنان اذا هم تركوها ورقة من أوراق البورصة المجنـــونة • فمشكلة بيروت بصفة خاصة أنها ليست مجتمعا بالمعنى الحقيقى • فكل الناس فيها متشابهون •• كأن بيروت يسكنها شخص واحد • له نصف مليون ظل • فهى مدينة مهجورة من الناس • ولكنهـــا مليئة بأشباح الانسان التاجر الذى يبيع بالنهار ، ويشترى بالليل • فلا يوجد مجتمع ، وانما يوجد أناس معا •• أفراد معا • أشخاص فرادى فى مدينة واحدة • فهم فى مكان واحد ولكنهم ليسوا « مجتمعين » •• وانما هم « متجمعون » •• فعلاقاتهم « تجمعية » وليست « اجتماعية » • وعلى ذلك فهم بلا قضية ، بلا مشكلة •

وهنا تبدأ مشكلة الفنان أو المفكر : فهو أمام جماعة غريبة من مواطنيه •• أناس لا يرون المشاكل ، ولا يحسون بها •• ومهمته أن يضع أصابعهم على مشكلة الناس • أن يضعهم فى قلب المشكلة •

وما كتبته « ليلى عسيران » فى قصتها الأخيرة عندما قارنت بين القاهرة وبيروت • فكان أهم ما لفت احساسها أن مجتمع القاهرة حى حار •• له تخطيط • وأن فى القاهرة جهودا هائلة صادقة نحو دفع المجتمع الى الأمام •• مجتمع يبنى مستقبله •• كأن أفراده فرقة موسيقية واحدة •• كل واحد يعزف على آلة

مختلفة ، ولكن اللحن واحد •• بينما مجتمع بيروت وبقية لبنان ممزق •• بلا هدف واضح • أو بلا هدف ، أوله هدف هو : جمع الفلوس فقط ! ••

وكلما رنت الفلوس فى بيروت ـــ صرخ الأدباء الشبان الصغار الضائعون فى وديان الجبال • فهم لا يملكون الا الصراخ •• كصراخ الطفل عند مولده •• لابد أن يصرخ ، واذا لم يصرخ فان الطبيب يدفعه الى الصراخ • وكلما كبر الطفل اتخـــذ صراخه شكلا واعيا مثل الكلام والكتابة والخطابة •• وكل ما ينقص الشبان فى لبنان هو أن يتلمسوا المشاكل وأن يلتفوا حولها ، وأن يصرخوا معها • فاذا لم يكن هناك مجتمع ، ففى استطاعتهم أن يخلقوا مجتمع الصارخين •• وحينئـــذ يظهر مجتمع آخر هو مجتمع الخائفين من الصراخ • وهذه هى بداية المشكلة • صراخ • ولا صراخ يتبدد فى الوديان أو فى الجبال •• وعلى الأدباء الشبان أن يعطوا الناس للناس •• أن يكلموا الناس عن الناس ، وعن متاعب الناس •

واذا أحس الأديب أو المفكر أو الفنان أن مجتمعه بلا مشكلة • كان انعدام المشاكل هو مشكلته الحقيقية الأساسية •

وتوقفت المناقشة فجأة بيننا كأنها تحولت من خيوط الى خشب •• ومددت يدى ومد يده ، وتمنيت له المزيد من المشاكل، وللأدباء المزيد من العقد • فمن هذه العقد الأدبية الانسانية ، يستطيع الفنان أن ينسج مجتمعه الجديد •• ينسجه أبنـــاء الضياع لا أبناء المصاطب • ليلحقوا الطابور الطويل الزاحف نحو تحقيق الأسرة العربية الكبيرة •

أنت متعة لجيرانك.. ولكنك لا تدرى!

ما الذى يمكن أن تفعله اذا نهضت زوجتك ، بكل هدوء ، وضربتك قلما على خدك الأيمن ، وقبل أن تدير لها الأيسر ، أو تخفى عنها الأيمن ، أو تغيب فى ذهول من هول هذه المفاجأة ، ينفتح الباب وتدخل ابنتك ووراءها زوجها — لاحظ أنهمـا عروسان من أيام فقط — والدموع التى فى عينيها تجعلك تنسى ما أصابك •• وستنسى ما أصابك تماما عندما تبدأ ابنتك تروى مصيبتها مع زوجها ، فقد اختلفت معه وعندما كانت فى حالة دفاع عن نفسها ضربت زوجها قلما ، وجاء هذا القلم على قفـاه • مع أنها تقصـد أن يكون على خـده الأيمن • ولن يكون فى استطاعتك أن تضحك لهذا الاعتذار الذى ساقته ابنتك •• وهى تعتذر طبعـا عن أنها أساءت اصابة الهـدف • والسبب هو اضطرابها الشديد واقدامها على عمل لم تكن تتصوره مطلقا • خصوصا أنها تزوجت عن حب • وأنهـا تحدت الأب والأم والعائلة كلها بهذا الزواج •• الخ •

وهنا يدخل زوج ابنتك ويؤكد لك أنه كان فى استطاعته أن يتقبل هذه الصفعة لو لم تكن أمام الخادمة التى تنقل الأخبار كلها الى البواب •• ويتولى البواب توزيع هذه الأخبار بالعدل على كل سكان العمارة والعمارات القريبة • منها •• وهـذا

البواب يروى هذه الأخبار وغيرها الى البوابين والطهاة والسفرجية •• وكلهم حريصون على أن يكونوا عادلين فى تشنيعهم على « السادة » •• أو فى الانتقام منهم بهذه القصص الفاضحة •• فهذه الفضائح عبارة عن ثقوب فى قاع السفينة يجعلها تمتلىء بالماء ، وتهبط قليلا •• فكل فضيحة هى محاولة لاغراق سفينة أحد ، •• أو تمزيق حياة انسان — ولابد أن اغراق السفن وتمزيق حياة أى انسان هى متعة البواب والخادم • متعة الخادم وهو يتلذذ بعذاب سيده ••

وأحب أن أقول لك ان بواب العمارة التى تسكن فيها مشهور لدى البوابين ومحبوب عندهم ، لأنه صاحب أكبر مجموعة من القصص المثيرة •• ولكى يصبح موقفك أصعب وأعقد ، أقول لك ان هذه القصص المثيرة هى قصصك مع زوجتك وخناقاتك معها • فأنت الآن تستطيع أن تعرف أنك عنصر هام جدا لكل المنطقة •• فعن طريق عيوبك واهاناتك المتكررة ، يشعر كل زوج أنه محترم • وتشعر كل زوجة أنها مؤدبة • وأن كل انسان أحسن منك ، وأسمى منك ، وأنك الحد الأدنى لكل شىء أنت الصفر •• والناس كلهم أعلى من مستوى البحر •• أو تحت مستوى سطح أماكنهم شرقا وغربا بالنسبة لك •• أنت مستوى سطح البحر •• والنا كلهم أعلى من مستوى البحر •• أو تحت مستوى سطح البحر •• وهم فى الغالب فوق مستواك أنت وزوجك •

وكل هؤلاء الناس عندما يريدون أن يتسلوا كل ليلة ، فانهم يروون قصصك •• يتندرون بها ، يسألون الخادمة المزيد من حكاياتك ••

واحساس الخادمة بأنها تقوم بدور الشخصية المسلية .. الشخصية التى تملأ البيت مرحا وبهجة ، يجعلها تتحول من مجرد واحدة تروى قصصا عن البواب ، الى مؤلفة ..

فأنت بفضل ما أصابك أنت وزوجتك قد حولت كل المنطقة الى عيون تتفرج عليك وأنت لا تراهم .. الى أذان تطيل الاستماع اليك وأنت لا تدرى .. فأنت قطعة من القماش يفصلها الناس على هواهم .. كل واحد يفصلها بالشكل الذى يريحه ، وبالشكل الذى يجعله أكثر احتراما وأكثر وقارا .. أنت الرجل الذى لا يريد أحد أن يكون مثله .. أنت البقعة السوداء التى تبدو الى جوارها كل البقع سمراء أو صفراء أو حمراء .

كل هذا وأنت لا تدرى ..

وقبل أن تجيب عن هذا السؤال الطويل أعود فأتوجه اليك بسؤال آخر هو : وماذا يكون موقفك اذا كانت ابنتك هذه قد سمعت كل ما دار بينك وبين زوجتك ، الى أن نزلت يد زوجتك نارا على خدك .. ثم انك فى ذهولك لما حدث قد نسيت ، أو لم تشعر بأن زوجتك قد صفعتك على خدك الآخر .. وفى ذهولك لما حدث للمرة الثانية . قد دخلت ابنتك وصفعت أمها قلما .. وسقطت الأم بين ذراعى زوج ابنتها ؟

انتهت أسئلتى . وقبل أن أطلب رأيك ، أؤكد لك أن هذا الذى أريد أن أضعك فيه ، لكى تحس به ، وتدلنى على الطريقة التى يمكنك أن تتصرف بها لو حدث هذا ، ليس لغزا ولا فزورة . وأنه حدث . ومن الممكن أن يحدث مرة أخرى ..

وأننى لا أعرف بالضبط أين الغلط • أو أننى أعرف أين الغلط • ولكن لا أعرف من هو الغلطان أكثر • هل ترى أن البنت التى ضربت أمها غلطانة ؟ •• اذا كان هذا رأيك فمعك حق • فمن الناحية الأخلاقية يجب ألا تضرب ابنة أمها • واذا حدث كان شيئا غريبا • ولكن كونه غريبا ، ليس معناه أنه لا يحدث • واذا قلت ان الزوجة لا يصح أيضا أن تضرب زوجها • فقد تكون على حق • لأنه من الممكن أن تضرب الزوجة زوجها • وليس غريبا أن يقبل زوج من زوجته أن تضربه • فالمسافة التى بين الزوجة والزوج ليست كالمسافة التى بين الابنة والأم •

واذا قلت مثلا ان هذا الموقف الغريب يؤكد قانون الوراثة ، وكنت تقصد من وراء ذلك أن البنت « طالعة » لأمها •• وأنها ضربت زوجها وضربت أمها أيضا • فأنا لست من رأيك • فقانون الوراثة لا يظهر فى هذه التصرفات التافهة ، كضرب القلم أو الشلوت •• وانما يظهر فى تصرفات أعمق وأعقد •• مثل التنكيد على الزوج ومثل تعميق الشعور بالندم على أن هذا الزواج قد اختارها دون كل البنات • ومثل الحرص على أن يكون البيت جهنم ، تماما كما فعلت أمها •• وكما فعلت أم الجميع حواء ، عندما أنزلت آدم من السماء الى الأرض •• الى جهنم !

واذا قلت ان هذا الموقف من أوله لآخره غير معقول • فليس معنى ذلك أنك لا تستطيع أن تتصوره • فليس أسهل من تصوير يد تمتد وتنزل مع جاذبية الأرض ، وتحدث دويا على خد ، وتتطاير شظايا الانفجار فى العين وفى طبلة الأذن •• فالعقل يستطيع أن يتصور أن أى يد من الممكن أن تنزل على أى خد •

والعقل أيضا يتصور أن الابنة من الممكن أن تصفع أمها وغير أمها • ولكن الضمير هو الذى يرفض هذا التصوير •

واذا قلت ان هذا لا يحدث الا فى المسرحيات أو فى الأفلام ، وحتى اذا حدث ، فالرقابة فى الدنيا كلها تمنع الأبناء من ضرب أبائهم ، وهذا موقف عظيم من الرقابة تحمى به القيم الأخلاقية فى أى مجتمع •

ولكن مجرد القول بأن هذا لا يحدث الا فى المسرحيات أو القصص معناه أن هذا الموقف خيالى • ومعناه أنك ترى أن هناك عالمين : عالم الواقع وعالم الخيال • وأنهما منفصلان • وعيب هذا الرأى هو أنه يفصل بين الواقع والخيال ، مع أن فى الواقع مواقف أغرب من الخيال • ومع أن الواقع هو البنك الذى يمول الأدب والفن •• والواقع هو القماش الذى يفصل منه الفنان كل البدل والفساتين التى نراها على المسرح •

وأنا عرفت أن هذا الموقف هو مسرحية كاملة كتبها الأديب الايطالى البرتو مورافيا ، فلك أن تسأل وما هو المعنى المقصود من زوجة تضرب زوجها أو ابنة تضرب أمها ، وكانت قبل ذلك قد ضربت زوجها أيضا ••

ربما كان المعنى هو أن القلم الذى تضربه الزوجة لزوجها له معنى مختلف عن القلم الذى ضربته الابنة لأمها •• أو الابنة لعريسها • مع أن القلم واحد •• واليد التى ضربت العزيس وضربت الأم واحدة ؟

وربما كان المعنى أن العريس هو الشخص الوحيد الذى

شهد مجموعة من الفضائح جعلته يشعر بالتشفى •• وجعلته يشعر بأنه قد ثار لكل ما أصابه •• فهو رأى الأب وهو فى حالة هوان ورأى الأم •• ورأى احتقار الأب والأم •• لابنتهما فى الوقت نفسه •• لقد رأى العريس كيف أن الأب الجريح قد اتفق مع زوجته التى جرحته فى احتقار واحد • هو احتقار لابنتهما •• ثم كيف أن العريس قد أحس فى نفس الوقت بالندم على أنه اختار زوجة تضرب أمها ، وتضرب أباها فى نفس الوقت ••

ان البرتو مورافيا قد انتقم للجميع وانتقم منهم أيضا ••

فقد خرج العريس واستدعى بواب العمارة وفتح له الباب ما حدث •• واعترفت العروس أن عريسها هذا من أحط الناس فهو لم يتزوجها لأنه يحبها ولكنه تزوجها لما علم أن أباها مريض بمرض قاتل وأنه سيموت قريبا وأنها هى الوارثة الوحيدة له •• وأنه قد فعل ذلك مع فتاة أخرى قبلها •

وأما بواب العمارة ففضح هؤلاء الأربعة أنفسهم ••

وليس من الضرورى أن يخرج البواب ••

وليس من الضرورى أن يقفل الباب وراءه اذا خرج ، وأن ينزل الستار معلنا نهاية مسرحية البرتو مورافيا •

فالمسرحيةَ قد انتهت بمجرد دخول البواب ومشاهدته وسماعه الاعترافات الأربعة المفضوحين •• الفاضحين لأنفسهم !

وقبل أن يخرج البواب يعترف الأب بأنه لم يكن مغمى عليه

من هول المفاجأة وانما كان يتظاهر بذلك ، لكى يدخل السعادة على قلب الزوجة . فهى تتوقع موته بين لحظة وأخرى لكى تتزوج رجلا آخر .. فكان الزوج يقبل الضرب ما دام يدخل السعادة على قلب الزوجة ويغيظها فى نفس الوقت .. ويقبله

دون أن يدافع عن نفسه .. ولابد أن هذا الأب قد تضايق من ابنته التى قد ضربت أمها ، لأنه يريد أن ينفرد باغاظة زوجته .. ولانه فى نفس الوقت يريد أن يرى زوجته فى المركز الأقوى .. فى مكانة الرجل .. فى مكانة السيد !

وربما كان المعنى أيضا الذى يقصد اليه المؤلف هو أن كشف فضائح السادة أو الكبار أو أصحاب العمل أو أصحاب البيوت هو الفرصة الوحيدة لتذويب الجليد الذى يفصل بين السادة والخدم ، أو بين الناس الذين يسكنون فوق ، وبين الناس الذين يجلسون تحت ، ويعملون تحت وينظرون ويسمعون من تحت لتحت ..

سؤال أخير : هل تفضل أن تكون واحدا من هؤلاء الأربعة ؟ أى هؤلاء الأربعة ؟ معظم الناس يفضل أن يكون البواب ..

أنا شخصيا أفضل أن أكون المؤلف !

الجنون .. ينبوع الفن

هذه هى حكاية شاعر لم يستطع أن يعقد صلحا بين عالمين : عالم الواقع وعالم الخيال . فالمفروض أن يذهب الشاعر من حين الى حين الى عالم الخيال ، ويعود لنا بعد ذلك يروى ما شاهد هناك . يروى لنا بالعقل ما رآه وهو حالم وهو فى شبه غيبوبة ... وظل هذا الشاعر يعبر الأسلاك الشائكة بين العالمين ٣٣ عاما . ثم طالب بحق الالتجـاء فأعطى له فأقام ٤٠ سنة أخرى مجنونا تماما حتى مات سنة ١٨٤٣ . لقد حاول أن يوفق بين عالمين . أن يهدىء الصراع العنيف بينهمـا . فاستسلم لأحدهما وانتهت حيـاته بأن أعطى عقـله لعـالم الخيال ، أما جسمه فظل ينقله الناس من بيت نجار الى بيت حداد ، الى بيت قسيس .. حتى استقر فى هذا البيت الصغير الذى ذهبنـا لزيارته من عشر سـنوات . والبيت لونه بنى أسود . وبابه قاتم اللون . يلمع فيه مقبض به صـدأ . ولا شىء فى مدخل هذا البيت يدل على أن أمير شعراء ألمانيا كان يقيم فيه . وبأطراف أصابعنا لمسناه . فانفتح بالقدر الـذى سمح بشىء عفن سد أنوفنا . ولم نعرف بالضبط هل كانت هذه العفونة هى أفكار العجوز التى توارت خلف الباب ، أو بقايا طعام لم ينضج . أو هو نفس الهواء الذى كان يشمه الشاعر من مائة سنة ، أو أنها هى رائحة المـاء الراكد تحت نافذته .. أو كانت هذه الرائحة سببها أننا فقأنا ثمرة ميتة ،

هذه الثمرة الميتة هى هذا الهدوء الذى يغمر الغرفة الصغيرة التى قرر فيها الشاعر أن يلتجىء الى العالم الآخر • والغرفة خانقة • أو هكذا تصورناها • لها نافذة تطل على نهر النكر • ما تزال الغرفة تطل من نافذة مفتوحة على النهر • وكأن النافذة عين مفتوحة • ولكنها لاترى •• فهى عين بلا انسان • وماتزال « حديقة التأوهات » على الجانب الآخر من النهر • ولا يزال طلبة الجامعة يتأوهون تحت أشجارها •ومعظم هؤلاء الطلبة لا يعرف الا القليل جدا عن الشاعر هيلدرلن • أمير شعراء ألمانيا ••

وانحشرنا فى داخل الغرفة الصغيرة •• وكان دخولنا هكذا : أنا والدكاترة : مراد كامل ، وحسن عثمان ، وابراهيم الدسوقى • والترتيب حسب أهمية الشاعر لنا • ولم نلاحظ على البيانو الموجود فى الغرفة آثار ضربات يدى الشاعر أو قدميه • ولم نلاحظ على الجدران آثار أظافره • ولم نجد فى الأرض تلى الفتحات التى كان يحاول أن يعمقها لكى يصل عن طريقها الى آلهة الشعر • ولابد أن مصلحة الآثار التى لم تضع لوحة على باب البيت • قد سدت هذه الفتحات كلها • ومحت آثار رجل فقير عاش معذبا ومات غامضا •

وفشل فى أن يكون ذلك « الوعاء السماوى الذى يحتفظ بنبيذ الحياة ودماء الأبطال » •• فلا عرف النبيذ ، ولا ذاق البطولة وانما كانت بطولته الوحيدة هى أنه قرر أن يموت منذ اللحظة الأولى لحياته • فأعطى نفسه للشعر ! •

ومنذ أيام أصدر الدكتور عثمان أمين كتابا صغيرا بعنوان

« فى الفلسفة والشعر » فيه محاضرة ألقاها الفيلسوف الوجودى هيدجر عن هذا الشاعر . وهو فى هذه المحاضرة يشير الى أن الشاعر يعتبر من أعظم شعراء المانيا وأهمهم أيضا وأكثرهم فهما لطبيعة الشعر . والمحاضرة مركزة جدا . أو هى مشروع لمحاضرة . وتحتاج الى دراسة . والأصل الألمانى غامض . والترجمة العربية غامضة أيضا . خصوصا اذا عرفت أن الدكتور عثمان أمين ، مثل هيدجر ، يستخدم مصطلحات شخصية لا يعرفها كل الناس . وبذلك جاءت هذه المحاضرة نتيجة معقولة جدا لرجل عاش غامضا ومات أكثر غموضا . وعندما حاول الناس فهمه غرقوا فى بحاره المظلمة !

ومن الممكن أن تقرأ له قصائد طويلة جدا . ولا تعرف أين هى عبقريته . وربما كانت عبقريته فى اللغة الألمانية نفسها . فى التراكيب اللغوية والبلاغيةالتى يلجأ اليها .ولكن الفيلسوف هيدجر يعتقد أن هذا الرجل هو الوحيد بين الشعراء الألمان الذى فهم جوهر الشعر . فعندما قال الشاعر : ان الانسان ليس الا حوارا .. وعندما قال : ان الشعر هو أكثر الهموم الانسانية براءة .. وعندما قال : ولكن الشعر يعتمد على أكثر الأشياء خطورة وهى اللغة .. عندما التقط هيدجر هذه الأبيات استطاع أن يكون منها مفهوما هاما للشعر : وهو أن الشعر أحد الهموم الصافية التى تستغرق الانسان .. ولكن الشعر هموم تجمع بين اللعب والجد . فهو لعب لأنه خيال فى خيال . وهو جاد لأن للخيال قوالب وقواعد وموسيقى موزونة . و الشعر يعتمد على سلاح خطر وهو اللغة .فاللغة هى الوسيلة التى تربط بين الشاعر والناس .. واللغة لابد أن

تكون على شكل حوار بين الشاعر ونفسه وبين الشاعر والناس . وبين الواقع والخيال . والانسان والآلهة وحدهم هم الذين يتكلمون . والآلهة علموا الانسان الكلام . علموه أسماء الأشياء . هذا هو جوهر الشعر .

واذا كانت حياة أى انسان تتشكل بالجو الفنى الذى يسود المجتمع الذى يعيش فيه . فان الفنانين أكثر حساسية لهذا الجو . فالفنان اما أن يطفو على وجه المجتمع . أو يقاوم تياره . وقد حاول هذا الشاعر أن يطفو .. وفشل . حاول أن يقاوم التيار . ثم هرب من التيار . انه لم يستسلم . ولكن اكتفى بالهرب الذى كان أسوأ من الاستسلام . حاول الشاعر أن ينشر فنه فلم يجد أحدا . وحاول أن يرفع رأسه فى زحام الرءوس ولكن أحدا لم يره . عندما مات أبوه أحس أن أمه أيضا قد ماتت . وعندما تزوجت أمه للمرة الثانية أحس بنفس الصدمة التى أحسها من قبل الشاعر بودلير والفيلسوف سارتر ، لقد أحس أن أمه ماتت فعلا . وأن كل ما يربطه بها هو الصلاة على روحها .

* * *

فقرر الشاعر أن يقفل بابه . أن ينعزل . وأن يدفن رأسه فى ترجمة الأدب اليونانى القديم . وأن يعتقل أفكاره على مداخل الكهوف فى الأساطير اليونانية . وعندما قرر أن يهرب من ألمانيا كلها قال فى قصيدة له : « انهم وحوش . شعب ليس فيهم بشر . انهم ليسوا الا مجموعة من الأيدى والأرجل

تجاورت بلا أجسام • كما تتجاور أشلاء القتلى فى ميدان الحرب • بلا انسانية • الدماء جفت •• الأنفاس أخرست • القلوب جمدت •• بلا حياة فلا حياة معهم •ولا حياة بينهم ••»

وكان يقول أيضا : « كل شيء حولى يرفضنى • مع أننى لم أفتح فمى •• كل شيء حولى ينكرنى مع أننى لم أجهر برسالتى بعد • كل شيء جامد كالجليد • ولكنى أستطيع أن أدفىء نفسى • أن العباقرة وحدهم هم الذين يجدون الدفء فى وجه العاصفة » ••

وفى المرة الوحيدة التى حاول أن يرتبط بالناس وجد سيدة غنية • رأى فيها الأم • أو رأى فيها بديلا عن أمه • فأحبها • وتوهم أنها هى أيضا تحبه • مع أن الذى سماه حبا • لم يكن الا اشفاقا • ولم يدرك الا فى سن متأخرة جدا • أن حبه كان صورة أخرى من صور وهمية فكتب يقول : « وكلما زاد عدد الخيول فى العربة ، ازدادت اهتزازا •• كلما زاد عدد الغرف فى القصر ، وزادت الأبواب والنوافذ التى نحبس أنفسنا وراءها ، وزاد عدد الخدم الذين نهرب منهم • لقد رأيت وعانيت وتعذبت • وأنا الآن أقفل بابى الوحيد • وأشد ثوبى الوحيد • وألتوى حول نفسى ، أمتص دموعى ، وأبصق جوهرى فى عزلتى • لا حياة لى هنا ! » •

ويقول لنفسه أيضا : « بالذوق بالقوة سأوقظ نفسى •• سأحطم مشاعرى النائمة • سأصحو الى الأبد • سأقف الى جوار هؤلاء الذين ناموا على عروش المجد الأدبى بلا مبرر •• سأصرخ حتى أنزعج • سأنزعج حتى أموت • سأموت حتى

أتطهر . لابد أن أكون كما أرادت مواهبى . لابد .. » .

ومنذ عشر سنوات عندما ذهبت الى مدينة تينبجن بألمانيا ، حيث عاش الشاعر ومات عرفت أن الفيلسوف هيدجر يسكن بالقرب منها وحاولت أن أتصل به ولم أجد الا أخاه . وأخبرنى أخوه أن الفيلسوف عريس . وأنه هو وزوجته فى أعالى الجبال . وسألت عن رجل آخر تخصص فى دراسة هذا الشاعر . وقابلت ابنته التى تعمل بائعة للكتب . فأخبرتنى أن والدها مريض وأنها حدثته عن رغبتى فى مقابلته فوعد بعد أن يتم شفاؤه . ولما قرأت قصائد الشاعر بعد ذلك أدركت أنه فى استطاعتى أن أفهم الشاعر دون حاجة الى معونة من أحد . ففلسفة الشاعر واضحة وهى لاتخفى على أى انسان له دراية بالفلسفة الألمانية . فهو مثالى ، كمعظم الفلاسفة الألمان . قد تعلق فى السماء من رأسه . أما رجلاه فهما فوق هذا العالم الواقعى . ولكنه فى سمائه العالية . يلقى علينا بين الحين والحين ، عبارات جميلة عميقة . وهو يقول عن نفسه : « اننى فوق اننى على خلاف الناس جميعا . أضع أعماقى فى السماء . انهم جميعا يهبطون الى الأعماق . أما أنا فأصعد اليها ! » .

وحتى بعد وفاة الشاعر . وحتى فى ألمانيا ، ورغم كثرة العباقرة والفلاسفة الذين عرفوه ، لم ينشر عنه الا القليل جدا . وان كان الشاعر قد أثار اهتمامات أصحاب الأذواق الغريبة فى الفن . فالممثلة الفرنسية سارة برنار ترجمت له بعض قصائده ! والقائد الانجليزى مونتجومرى قد ألف عنه

كتابا ! والرسام بيكاسو رسم له لوحة مستوحاة من احدى قصائده! •

وعلى الرغم أن الشاعر مات وعمره ٧٣ عاما • فانه مات « فنيا » فى الثالثة والثلاثين من عمره • لقد سبقه الى هـذا الموت عدد كبير من الشعراء المرهفين ذوى الحساسية الأليمة • فالشاعر لوتر يومون مات فى الرابعة والعشرين والألمـانى نوفالس فى التاسعة والعشرين وشيلى فى الثلاثين وبيرون فى السادسة والثلاثين • والشاعر رامبو مات فى السابعة والثلاثين، ولكنه توقف عن نظم الشعر وهو فى الواحدة والعشرين !

كلهم كانوا كالنجوم لابد أن يحترقوا بشدة وبسرعة ، لكى يراهم الناس بعد ذلك !

وجاءت الدراسة الطويلة لحياة الشاعر الغامض تؤكد أن المرض الذى أصابه • والذى راح ضحيته ليس الا مرض كل الفنانين لو زادت حساسيتهم ، أو فشلت جهودهم فى التوفيق بين عالم الواقع وعالم الخيال ، بين عالم الناس • وعالم البرج العاجى •• هذا المرض هو انفصال الشخصية •

وكما يحدث أن الممثل على المسرح « يندمج » فى دوره ، أى فى القيام بدور شخصية أخرى فيتحرك مثلها • ويتكلم مثلها • وينسى شخصيته هو تماما ، ونصـفق له لأنه نسى شخصيته هو ، فكذلك الفنان يندمج فى عالمه الآخر • ويستغرقه هذا العالم الآخر حتى ينسى من هو • والفنان العاقل هو الذى يندمج فى دوره ، ثم يعود الى ملابسه • الى نفسه • الى

شخصيته ، الى اسمه • الى صورته وعنوانه المكتوب فى البطاقة الشـــخصية •

وما حدث للشاعر هيلدرلن هو أنه اندمج فى دوره الخيالى •• حتى انفصل عن نفسه ، عن حقيقته • تماما كما ينزل الممثل من فوق خشبة المسرح ويعود الى البيت بملابس التمثيل ويتكلم فى البيت ، كما تتكلم الشخصية التى كان يؤدى دورها على المسرح •• فلا يجد فى البيت أو فى الشارع نفس الأشخاص الذين كانوا معه على المسرح • ولا نفس اللغة ، ولا نفس الوقت الذى صنعه خيال المؤلف •• فيصطدم بالواقع • ولكن الواقع لا يوقظه • فيهرب من جديد الى المسرح ويعيش فيه وينام على خشبته ويموت فى ملابسه الوهمية • وهــذا هو الجنـــون ! ••

ولكن هذا « الاندماج » المجنون هو الذى أخرج لنا روائع الفن • ولولا هذا الاندماج المؤقت • ما كان فى تاريخ الانسانية بيت واحد من الشعر ولا لحظة واحدة من الموسيقى • ولا بقعة واحدة من اللون •• أن هذا المرض هو الذى ندين له بكل الفنون التى نستمتع بها ••

ان الفنان يشبه الحيوان الذى يفرز اللؤلؤ فى البحر •• فحيوان اللؤلؤ يعيش فى قوقعة •• هذه القوقعة تشبه البرج العاجى • ويحدث أن تتسلل الى القوقعة ذرة من الرمل • هذه الذرة تؤذى الحيوان الصغير فيلتهب جسمه الرقيق • ثم ينسحب الحيوان الى مكان أمين فى أعماق البحر ويروح يفرز على ذرة الرمل هــذه المادة اللامعة الجميلة التى نســميها باللؤلؤ •

فاللؤلؤ ليس الا محاولة من الفنان لعزل جسمه عن هذه الذرة المؤلمة • فاللؤلؤ ليس الا دموع الفنان فى ثلاث أو أربع سنوات• ونحن نرى اللؤلؤ ونبيعه ونشتريه ونلمحه على صدور النساء ، وننسى أن هذه الحبات هى دموع الألم لفنان رقيق حاول أن يدفع عن نفسه الأذى •• فعاش فى سلام وغاص فى الأعماق وفى الوحدة الأليمة ، يذرف هذه الدموع اللؤلؤية ! ••

مجهول يفوز بنوبل

يا أولاد الحلال .. هل يوجد بينكم واحد يعرف أين مكان رجل يونانى متوسط القامة ، أصلع الرأس ، جاد الملامح ، مولود فى أزمير بتركيا وفى السابعة من عمره سافر الى أثينا . ومن أثينا الى باريس ، وتحت ضغط النازى هرب الى كريت ، ومن كريت الى مصر ، ومن مصر الى سوريا ولبنان ثم عاد الى باريس ، وعمل سفيرا لبلاده فى بريطانيا حتى اعتزل السلك الدبلوماسى فى العام الماضى ، ويقال انه اختفى فى فيلا صغيرة بالقرب من أثينــا ؟

يا أولاد الحلال .. ألم يســمع واحد منكم عن هذا الرجل الذى اسمه جورجاى ســفير يادس والشــهير باسم جورج سفيريس .. يقولون انه شاعر والذين يعرفونه يقولون : بل شاعر عظيم . وانتاجه قليل . ولكن معظم أعماله ترجمات للشاعر اليوث وللشاعر لورانس دريل . ومعنى ذلك أن الترجمة فى بعض الأحيان تبلغ نفس الدرجة والروعة كالتأليف ..!

لم أجد كتابا واحدا عن هذا الرجل اليونانى الذى فاز بجائزة نوبل للأدب هذا العام . لم أجد واحدا يعرف اسمه ، أو صادف أن قرأ اسمه . أو حتى تصور أن لليونان شــاعرا آخر غير المرحوم كازانتراكس مؤلف قصة « الفتى زوربا » و « اعــادة

ـطلب المسيح » •• والذى مات كمدا لأنه لم يفز بهذه الجائزة التى ترشح لها ست مرات !

وعدت الى دوائر المعارف •• ولم أجد شـيئا عنه فى الدوائر ولا القواميس التى عندى • وأخيرا عثرت على بعض أبيات من ديوانه الأول الذى نشره سنة ١٩٣١ بعنوان « نقطة تحول » وبعض المقالات القصيرة والتعليقات الموجزة •

لقد نقلت وكالات الأنباء أسماء دواوينه والكتب التى ترجمها وليس من بينها واحد فى المكتبات العـامة أو الخاصة • ونحن اليوم نعيش على أمل أن تصلنا مؤلفاته فى العام القادم •

ان أبناء اليـونان فى أفراح متواصلة •• الذين يفهمون فى الشعر ، والذين لا يعرفون سفيريس • لقد عاش اليونان على أنه شعب له ماض فقط •• وليس له حاضر • والمسـتقبل ابن الحاضر • فلا مستقبل لهم أيضا • وقد كان من أبنائهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وهوميروس • فقط هذه أهراماتهم الفلسفية الأربعة • وقد باعوا هذه الأهرامات ألوف السـنين ، بملايين الجنيهات لكل الناس • وتأثر بهم العالم كله ، ولا يزال • ولكن ليس فى حاضرهم أحـد من وزن هؤلاء العظماء الى أن منحت جائزة نوبل لشاعرهم سفيريس • فشعر أبناء اليونان بأن معجزة قـد حدثت • تماما كأن الأمم المتحدة قـد طلبت منهم مليون جرسون ليعملوا فى كل مطاعم الدنيا •• كأن جزر اليونان الجافة المهجورة قـد تحولت الى وديان خضراء بها أشـجار عنب •• والأشجار لها أوراق ، والأوراق فلوس • والثمار لؤلؤ ، والندى

قطرات نبيذ •• أو كان هوميروس قد بعث من قبره ليروى للجيل الجديد أسطورة الرجل الذى عاش مهذبا صـــاتما • يخفى ثورة تحت ملابسه ولا يكشف الا عن ابتسامة رسمية ، ثم فاز بجائزة نوبل فى الشعر ! ••

* * *

اننا تعودنا الآن على مفاجآت الأكاديمية الســـويدية التى تختار الفائزين بجائزة نوبل •• ففى كل عام تختار فنانا لا يعرفه الا عـــدد قليل من الناس •• لقـــد اختارت الشـــاعر الايطالى كواز يمودو •• واختارت الشاعر الفرنسى سان جون برس ، واختارت الأديب الأيسلندى لاكسنيس •• ولم تختر واحدا من أعلام الأدب والفلسفة •• لقد أصبح شيئا مألوفا جدا أن نجد أسماء غير مألوفة لتفوز بهذه الجائزة الكبرى •

وقالت صحيفة التايمز فى لندن ان الذى يقرأ ما ترجمه الشاعر اليونانى يلمح صدق المترجم • وشاعريته العظيمة • وليس هذا غريبا فهو حفيد الحضارة اليونانية العظيمة الغنية بكل شىء •• والتى أشاعت الحياة فى الحجر والشجر والماء والهواء والسماء •• فهى حضارة فيها كل شىء حى •

وقالت نيويورك تايمز : لم نفاجأ بفوز الشـــاعر اليونانى سفيريس بهذه الجائزة • فهو أشـــبه بالأنهار الجوفية •• انه يتحرك بعيدا عن العيون ، عميقا ثابتا غنيا ، ثم لا يلبث من تلقاء نفسه أن يعلو على شكل نافورة من الماء الصافى المتدفق ، والذى

يعرف طبيعة الأنهار الجوفية لا تدهشـــه النافورة والذى يفهم النافورة ليس فى حاجة الى أن يعرف المياه الجوفية •• ان هذه الجائزة هى تحية عظيمة ، ولكنها متواضعة • انها دين فى عنق الحضارة الحديثة ، للحضارة اليونانية القديمة • فليشكر الشاعر أهله ، أو ليشكر أبناء اليونان شاعرهم •• أما نحن فقد تعلمنا على يد هوميروس القديم ؛ وتذوقنا هوميروس الجديد •• !

ولكن يا أولاد الحلال ، أنا لا أعرف عن هذا الرجل أكثر مما تالته الصحف ووكالات الأنبـــاء ، والا الأربعين أو الخمسين صفحة التى قرأتها بقلمه تعليقا على موضوعات مختلفة •• فأنا أذكر أنه عندما فاز باسترناك بجائزة الأدب ، كانت النســـخة الوحيدة فى مصر موجودة عندى لقصة « الدكتور جيفاجو » •• وعندما فاز كوازيمودو ، كانت قصيدته التى نظمها فى الأقمار الصناعية موجودة عندى • وعندما فاز الشاعر سان جون برس كان ديوانه كاملا عندى •• الا هــذا الرجل فلم أسمع عنه • ولم أر له صورة • ولا قرأت له اسما فى أى مكان ولا فى أى مناسبة •• أنا فى عرض كتاب واحد له أو عنه ••!

* * *

وربما اختارت الأكاديمية السويدية رجلا من اليونان بالذات، لأن اليونان لم تفز بهـــذه الجائزة وخصوصا فى الأدب ، بينما فازت بهـــا فرنســـا عشر مرات ، وفازت بهـــا كل من أمريكا وبريطانيا بست مرات •

أو لأن هذا الرجل بالذات شاعر ، ولأنه أدى لبلاده خدمات انسانية •• ولأنه من دعاة الحياة والسلام •

أو ربما لأن هذه الأكاديمية أصبحت تتجه الى المواهب البعيدة عن الأضواء •• فليس كل ما تحت الضوء هو الموهبة • فالأضواء كثيرا ما أعمت المواهب وأفسدتها • ولذلك اختارت شاعرا • له هذا الوزن الفنى بعيدا عن الضوء • وانتاجه محدود ، ويترجم وينظم لمزاجه الخاص ، دون أن يكون مدفوعا من الخلف بالناس ، ومن الأمام بالأضواء •

وهناك شعراء أو أدباء أعظم منه وأشــهر • وكل شيء من أعمالهم وحياتهم معروفة لنا •• بل أنت تعرف أين يعملون ، وكم يكسبون ، ومن صديقاتهم ، ومن سكرتيراتهم • وما هى أمراضهم وما هى آراؤهم فى أى شيء •• ومع ذلك لم يفز واحد منهم •• مثال ذلك مارســيل الفيلســوف الروائى المسرحى السياسى ، ومورافيا رائد الواقعية الجديدة فى ايطاليا ، وبيكيت أحد أعلام المدرسة « العبثية » فى أوربا •

ولكن الأكاديمية الســويدية حريصة ــ الى حد ما ــ على تنفيذ وصية « الفريد نوبل » فى منح هذه الجائزة للذين ينادون بالسلام ويحرصون على الحيــاة •• وترى هذه الأكاديمية أن هؤلاء اللامعين أصحاب اتجاهات خطيرة تهدد السلام النفسى ، وأنهم متشائمون يدعون لليأس ، والملل والموت •

فهم جميعا لا يستحقون جائزة الحياة والسلام ، لأنهم يعملون على عدم الحياة ومحاربة السلام •

على كل حال هذه وجهة نظر الأكاديمية السويدية التى منحت شاعر اليونان جائزة الأدب وقيمتها ١٨ ألف جنيه استرلينى •• وهــذه الأكاديمية ليست منزهة تماما عن الغــرض السياسى أو الدينى أو العنصرى !

ولكن ــ وهذا هو الأهم ــ ربما كان الغــرض من منح هذه الجائزة لشــاعر معاصر •• أن الأكاديمية ترى ضرورة تشجيع الشعراء ، أو ترى أن الشعر ضرورى للناس فى العصر الحديث • فالعلم لم يحطم الفن • والصحافة لم تقتل الأدب • والسينما لم تمزق القصة ولم تقض على المسرحية •• وهى جميعا لا يمكن أن تجعل الشعر فنا منقرضا • ولا تزال الموسيقى راحة للنفس ومتعة العقل ، ولا يزال الخيــال هو أسرع وسيلة من وسائل المواصلات بيننا وبين كل ما نحلم به •• وما دام هناك خيال وموسيقى وأحلام فلابد أن يكون هناك شعر •

بل لا يمكن أن يقوم الانسان بتحقيق شىء فى الدنيا من غير شــعر •• هل تستطيع أن تنجح فى عمل دون حرارة •• دون حماسة ، دون أن تنتظم فيه ، دون أن يكون هذا النظام لذيذا ودون أن يكون عندك أمل ، ودون أن يكون الأمل هو سفيرك الصابر الى أحلامك ؟ كل هذا هو الشعر !!

فلا حياة بغير شعر ••

بل لا ثورة على أى حياة بلا شعر •

فالشعراء هم أسبق النــاس الى الاحساس بكل المعانى •

ويجىء بعدهم المؤرخون فيناقشون هذه المعانى ويطلقون عليها الأسماء .. فالشاعر هو الأم التى تحمل وتلد . والتاريخ هو الطبيب وهو كاتب الصحة الذى يختار اسم المولود وجنسه ودينه ويسجله فى دفتر المواليد أو دفتر الوفيات .. أما الشاعر فهو الوالد والوالدة . هو السابق دائما الى كل ما هو جميل وخير !

ويعتقد الشاعر اليونانى سفيريس أنه فاز بجائزة نوبل للأدب لأن الأكاديمية السويدية ترى أن الانسانية فى حاجة اليوم ، أكثر من أى يوم مضى ، الى شيئين هما : الشعر والروح اليونانية !

ويرى الدكتور أندريس استرلنج رئيس الأكاديمية السويدية . أن الشاعر اليونانى فاز بجائزة نوبل لأفكاره الفذة وأسلوبه الممتاز ، ولغته الجميلة ، ولأنه أصبح رمزا لكل ما هو خالد فى الروح اليونانية التى تدعو الى الحياة . فهو كما قيل بحق . وهو وحده قد ترجم أسرار صخور اليونان وآثارها الصامتة . وتماثيلها الباسمة .. والشاعر سفيريس من الناحية الفنية ، قد استوحى الكثير من شعر اليوت ، ولكن تسمع فى أعماقه نغمته الخاصة التى لا تخطئها الأذن .. بل لتسمع كذلك الموسيقى كورس .. اغريقى قديم ..

* * *

مبروك على اليونان ، والعاقبة عندنا فى الشعر والنثر .

اليهودى التائه إلى الأبد

الكلام عن اليهود .. وعن الصهيونية العالمية ، هو كلام فى السياسة . وهو أيضا فى السينما . فالسينما تخدم السياسة . والسياسة تخدم رأس المال . ورأس المال لا دين له ولا وطن له . فأصحاب رءوس الأموال فى العالم كله يكونون طبقة واحدة . ولا خلاف بين صاحب رأس المال المسلم وصاحب رأس المال اليهودى ، كما أنه لا خلاف بين العامل العربى والعامل الانجليزى والأمريكى . فكلهم يكونون طبقة واحدة ، لها مصالح واحدة . وموقف واحد من أصحاب الأعمال . وأصحاب رءوس الأموال .

وليس هذا الكلام فى السياسة مائة فى المائة . ولكنه كلام فى الاقتصاد وهو فى نفس الوقت كلام فى السينما . والسينما : سياسة وفلوس . ولذلك بين كل عشرة أفلام تنتجها هوليود وغيرها نجد أفلاما لخدمة أصحاب رأس المال اليهودى . وفى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ظهرت أفلام كثيرة لخدمة قضايا الصهيونية العالمية .

وليس من الضرورى أن يكون الفيلم من أوله لآخره عن اليهود والعذاب الذى يلقونه — أو يزعمون أنهم يلقونه ، فى ألمانيا وبولندا وروسيا ، وفى العالم العربى — ولكن جملة واحدة تكفى موقف واحد يكفى ..

والأفلام التى يمكن أن أذكرها هنا على سبيل المثال كثيرة ومعروفة • وأصبح ذكرها مكررا • ولكن الحقيقة التى تعبر عنها هذه الأفلام أصبحت من الوضـــوح بحيث لا أحتاج الى ذكرها مرة ثانية أو ثالثة ••

ولكن فى هذه الأعوام أو هذه الأيام بالذات قد وقعت فى عالمنا العربى أحداث ، هى التى فرضت على مشاعر الناس أن يفكروا فى اليهود وفى الصهيونية العالمية ••

ففى عام ١٩٤٧ اكتشف اليهود ، أو هكذا يقولون ، مجموعة من الأوراق التاريخية فى أحد الكهوف عند شاطىء البحر الميت ، وكانت هذه الأوراق مكتوبة باللغة العبرية ، وهى تتحدث عن فترة فى التاريخ العـــالمى •• أى ما بين بســـنة مائة قبل ميلاد المسيح ، وسنة ٧٠ بعد ميلاد المسيح •• وقـــد ترجمت هذه الأوراق الى كل لغات العالم •

وأنا رأيت عينات من هذه الأوراق فى الجناح الاسرائيلى ، فى المعرض الدولى عام ١٩٥٧ بمدينة بروكسل • وأهم ما فى هذه الأوراق أنها تؤكد أن المسيح لم يصلب وانما الذى صلب رجل آخر •• وأن العشاء الأخير ، لم يحدث •• وأن المسيح بالذات لم يكن له وجود فى الوقت الذى حدده التاريخ المسيحى ، وانما ظهر قبل ذلك بعشرين أو ثلاثين عاما •

ومعنى هذا الكلام أن المسيح الذى يقـــول المسيحيون ان اليهود صـــلبوه ، هو شخص آخر • فلا المسيح صـــلبوه ، ولا اليهود اشتركوا فى صلبه !

وظهرت هذه المخطوطات •• وظهرت معها مئات الدراسات ، وابتلع العــالم كله هــذه الأوراق التاريخية • وصرخ بعض القساوسة وبعض المفكرين ولكن دور النشر اليهودية ، راحت تطبع ملايين النسخ من « أوراق البحر الميت » •

وآخر لعبة يهودية هى الوثيقة التى تقدم بها كاردينال ألمانى اسمه (بيــا) وهو فى هذه الوثيقة يؤكد أن اليهود أبرياء من دم المسيح •

ومن المؤكد أن البابا قد قرأ هذه الوثيقة • وبذلك يصبح من رأى ٥٥٠ مليون كاثوليكى أن اليهود أبرياء من دم المسيح ويصبح من رأى ٣٦٠ مليون مسيحى آخر بروتستانتى وأرثوذكسى ، أن اليهــود هم الذين قطعوا رأس يوحنا المعمدان ، وصلبوا المسيح ••

وجاءت الأفلام السينمائية ممهدة لهــذا العفو والغفران على اليهود الذين تعذبوا بما فيه الكفاية ••

والخلاصة أن الوقت قد جاء ليعقد اليهود والمسيحيون صلحا عالميا على يدى البابا ، على يدى أكبر رأس دينى كاثوليكى فى العــالم •

كما زار البابا الأماكن المقدسة فى فلسطين المحتلة وفى الأردن •• وكانت زيارة اســتغلتها الصهيونية العالمية استغلالا واســع النطاق !

فهذه الزيارة ، وما سبقها من مؤتمرات دينية فى ايطاليا وفى ألمانيا وفى أمريكا ، ثم اغتيال كنيدى على أيدى اليهود ، كل هذا يؤدى الى الضغط العنيف على الضمير العالمى ، وعلى الوعى العربى ، ويحتم على كل انسان أن يبحث عن اتجاه الريح القادمة من مراكز الصهيونية العالمية ، وقد أعد اطلاق الصواريخ المعادية للعرب والقومية العربية ..

ولن يطول انتظارنا ..

فقد أعلنت المجلات السينمائية أن فيلما قديما جدا ، سيعاد اخراجه وتمثيله من جديد .. هذا الفيلم اسمه « اليهودى التائه » ..

وهذا الفيلم قد ظهر على الشاشة قبل سنة ١٩١٣ وأنتجته شركة سينمائية اسمها « روما أمريكا » .. والفيلم مأخوذ عن قصة الكاتب الفرنسى يوجين سى . وقد ظهرت هذه القصة منذ ١٢٠ سنة .

وبعد عشر سنوات أخرى أى فى سنة ١٩٢٣ ظهر فيلم انجليزى اسمه « اليهودى التائه » وهو مأخوذ عن مسرحية للكاتب ثميل ثرستون . ولم يقدر لهذا الفيلم أن ينجح .

وبعد عشر سنوات ، أى فى سنة ١٩٣٣ أنتجت شركة « جافا » فيلما باللغة الألمانية اسمه « اليهودى التائه » بطولة الممثل الألمانى كوب بن امى . وكان الفيلم من انتاج شركة ر.ك.و. ولم ينجح هذا الفيلم أيضا .

وفيما بين ١٩٣٤ و ١٩٣٥ ظهر فيلم ألمانى مأخوذ قصته عن مسرحية ثرستون أيضا • وقام بالبطولة ممثل ألمانى اسمه كونراد فيت • ومن انتاج استوديوهات ترنكنهام • وقد ظهر هذا الفيلم فى وقت غير مناسب • فقد بلغت النازية فى ألمانيا أوج قمتها • وكان من الطبيعى أن يقاومه هتلر ويقاوم كل عمل أدبى أو فنى يثير العطف على اليهود • ثم جمع هتلر كل نسخ فيلم « اليهودى التائه » وأحرقها • واعتقل المشتغلين فى توزيع هذا الفيلم وفى انتاجه أيضا •

وبعد الحرب العالمية الثانية ، ارتفعت دقات الطبول الجنائزية فى كل أوربا • وأغرقت دموع اليهود كل الصحف وكل المسارح ، والأفلام • وشن اليهود حملة عنيفة لارغام الألمان ، خصوصا الألمان ، بطلب العفو والمغفرة من اليهود الذين عذبوهم وأحرقوهم •• الى آخر هذه القصة القديمة جدا • وظهرت أفلام ومسرحيات وكتب وحفلات خيرية وندوات ومحاضرات ، لتعذيب الألمان وتعميق أشواك الندم فى ضمائرهم •• وفى كل مرة يلعنون الألمان ، لا ينسون أن يلعنوا العرب الذين يريدون أن يعودوا الى أوطانهم التى احتلها اليهود ! ••

ثم ظهر فى ايطاليا الكاثوليكية فيلم اسمه : اليهودى التائه ••

وكان بطل الفيلم هو فيتوريو جاسمان ••

والفيلم من انتاج شركة « التوزيع المستقلة الايطالية » ••

والفيلم يحكى قصة جماعة من اليهود اعتقلهم النازيون فى

باريس •• ووضعوهم فى معسكرات الاعتقال وفى غرف الغاز ، وأحرقوا جلودهم وشعورهم وأصابعهم •• ولم يموتوا •• والفيلم يريد أن يقول انه مهما يعمل الناس باليهود ، أو الألمان باليهود، فسيبقى اليهود الى الأبد ••

وانتقل الفيلم من ايطاليا الى أمريكا •• وظهرت الترجمة الانجليزية على الفيلم • وتغير اسمه الى : رجال الزمن ••

وأثار هذا الفيلم ضجة فى أمريكا •• ونجح فى أمريكا • وان كان لم ينجح فى ايطاليا • كما كان يتوقع اليهود •

* * *

وقصة اليهودى التائه قديمة ••

فقد أطلق بعض المؤرخين على الرجل الذى زعموا أنه رفض أن يساعد المسيح يوم صلبه ، اسم الرجل •• الملعون •• فقد طلب منه المسيح أن يريحه فرفض الرجل أن يريحه ولو قليلا • فلعنه المسيح وقال له : ستكون ملعونا الى الأبد ، سيستريح الناس وتعمل أنت •• !

وانتقلت فى كل العصور أسطورة تروى ظهور هذا الرجل ••

وفى سنة ألف ميلادية كان الناس يعتقدون أن المسيح سيعود ولذلك عندما ظهر رجل يدعى أنه اليهودى الملعون ، وأن المسيح سيظهر قريبا ، أغدق الناس عليه كل ما عندهم من أموال وطعام •

ثم ظهر بعد ذلك أناس كثيرون فى أوربا وفى أمريكا وفى آسيا يؤكدون أنهم هذا اليهودى الملعون أو اليهودى الذى دعا عليه المسيح بأن يظل ضـائعا تائهـا الى الأبد .. يطلب الراحـة فلا يجدهـا ، ويطلب الموت ، ولكن الله لا ينعم عليه بالموت ..

وقد تناول الكاتب الفرنسى الكسندر ديما قصة اليهودى الذى ذهب البابا واعترف له بأنه رفض أن يقدم مقعـدا للمسيح يستريح عليه ، وهو يحمل صليبه الى مكان الجثة .. وطلب من البابا أن يدعو الله أن ينعم عليه بالموت .. ولكن الله لم يرحمه ، وانما تركه على قيد الحياة ، أو ترك الحياة قيدا له يخنقه ولكن لا يقضى عليه .. فهو ملعون .. أى محكوم عليه بالحياة الى الأبد !

والكاتب الفرنسى يوجين سى قد تناول هذه القصة فى ١٢٠٠ صفحة وناقش فيها عيوب المجتمع فى منتصف القرن التاسع عشر أى عام ١٨٤٤ ولاحظ يوجين سى أن عوامل التماسك والبقاء فى الدنيـا ثلاثة : الأسرة والمـال والشركة .. فأنت تستطيع أن تبقى عن طريق الزواج فيكون لك أولاد وأحفاد .

والمـال يبقى عن طريق الاستثمار .. فالأموال تضـاعف نفسها دون مجهود منك .. ثم لا يمكن أن تبقى وحدك وتعيش بمفردك ، لذلك يجب أن تكون عضوا فى شركة أو فى مؤسسة أو فى نظام .. واليهود حريصـون على أن يربطوا هـذه العوامل الثلاثة برباط واحد هو : الفلوس ..

ولذلك تقوم قصته على أن جماعة من اليهود اتفقوا على أن يلتقوا فى باريس يوم ٢١ فبراير سنة ١٨٣٢ فخرج من بولندا رجل يهودى اسمه سيمون هو اليهودى التائه . وقد ارتدى حذاء قديما ، وكان الحذاء يرسم على الأرض صليبا . وهذا الصليب قد رسمته المسامير السبعة الموجودة فى حذائه .. ومن أمريكا خرجت سيدة فى طريقها الى باريس لتقابل سيمون فى اليوم الموعود .. وهذه السيدة هى هيروديا أم سالومى وزوجة ملك اليهود هيرودس ... وهيروديا هذه هى التى قطعت رأس يوحنا المعمدان وقدمته ابنتها على طبق من الفضة وهى ترقص عارية ..

ويلتقى اليهودى التائه واليهودية التائهة يوم ٢١ فبراير فى باريس .. وتدور حوادث قصة اليهودى التائه التى ظهرت على مسرح أوربا بعد الحرب السبعينية وبعد الحرب العالمية الأولى والثانية ..

وسوف يعاد تصوير هذا الفيلم وبصورة تتفق مع ضخامة التضحية التى يتصدى لها أصحاب رؤوس الأموال اليهودية ، فى أمريكا وفى أوربا .. ولابد أن الشركات السينمائية ستختار أحد اليهود المتحمسين ليقوم بدور اليهودى التائه ، على نحو أحسن وأقوى مما قام به فيتوريو جاسمان فى ايطاليا .

ولا خلاف بين الرأسمالى اليهودى والرأسمالى المسيحى . أو المسلم فلهم جميعا مصالح واحدة . ومهما كان الرأسماليون متدينين أو متهوسين من الناحية الدينية ، فان تشابه مصالحهم المالية تجعلهم من دين واحد . ولذلك فالصهيونية العالمية تعتمد

على دين عالمى هو دين الطبقة التى تملك الفلوس ، فى مواجهة الطبقة المفلسة التى لا تملك الفلوس .

وتحاول الصهيونية العالمية أن تجعل اليهودى التائه فى طريقه الى الهداية .. فيصبح اليهودى المنتظر .. أو اليهودى الذى اهتدى بعد أن ضل عشرات المئات من السنين ..

ولكى يكون الصـــلح تماما بين اليهود الذين سينتجون هذا الفيلم ، وبين جمهورهم فى العالم المسيحى الواسع ، فقد مهدوا لذلك محاولة للصلح التام بين الذين قال عنهم التاريخ انهم صلبوا المسيح ، أى اليهود ، وبين الذين آمنوا بالمسيح .. فاذا تم هذا الصلح بين نصف العالم المسيحى ، فقد بقى نصف آخر يؤمن بأن اليهود هم مصاصوا دماء الانسانية وقاتلوا الأنبياء ودعاة السلام .. وبقى العرب على حدود اسرائيل ، عيونهم مفتوحة وعقولهم واعية ، وقلوبهم كارهة ، حتى يبقى اليهود تائهين فى الأرض الموعودة وفى كل أرض .. !

نهاية قصص بنام بأقدام

الكاتب الروسى تورجنيف كان يقول : ان الانسان قادر على أن يفهم كل شىء ، قادر على أن يفهم لماذا يهتز الأثير ، ولمـــاذا يتغير وجه القمر .. ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يفهم لمـــاذا يعطس كل انسان بصورة مختلفة !

وليس مهما أبدا أن يعطس الناس بصورة واحدة .

ولكن المهم أن يعطس الناس كل واحد على طريقته ، وأن يأكل ويشرب ويعيش على طريقته .

وأهم من ذلك أن يكونوا اناســـا .. أن يكون بشرا .. أن يفهموا ويتفاهموا ، وأن يعيشوا ويتعايشوا وأن يرتبطوا بالخير ، ويترابطوا فى سلام !

واذا كانت الشمس تدفىء الهواء . فان الصداقة تدفىء القلب . كما يقول خروشوف !

والذى حدث فى أسوان هن أحسن نموذج لمـــا فعلته الشمس والصداقة معـــا !

❊ ❊ ❊

ولاشك أن بنــاء الســد تجربة ناجحة ، والتجربة هى بداية المعرفة .. أى بداية معرفتنا البناء والتصميم والتنفيذ .

والمعرفة قوة .. لأنها تجعلنا قادرين على أن نقوم بمشروعات أخرى ، ولأنها تعطينا الثقة بالنفس فنتجه الى ما هو أصعب .

والسد العالى ليس أصعب مشاريعنا .. وانما هناك مشروعات أصعب وأقسى . فليس أسهل — بعد اليوم — من تحطيم الصخور وتجويفها وتحويلها الى رمل . ثم اعادة بنائها .

ولكن الأصعب من ذلك هو تحريك الناس ، وتحويلهم وتطويرهم ودفعهم الى الانتاج فى اطارات اجتماعية جديدة .. ان بنــاء الصخور ، بعضها فوق بعض ، أسهل من بناء الناس بعضها مع بعض ..

وبناء المصانع أسهل من بنــاء النــاس .. كما يقول جمال عبد النــاصر !

ومع ذلك فنحن لم نبن السد . .

وانما السد هو الذى بنانا .. فنحن لم نشيد السد ، وانما السد هو الذى أقامنا .

لقد عرفنا أن العمل ، أى عمل ، هو تصميم وتنفيذ ..

فالذى ينفذ ليس من الضرورى أن يكون هو الذى يصمم .. والذى يصمم ليس من الضرورى أن يكون هو الذى ينفذ بيديه ..

فهناك من يعمل بيده ، وهناك من يعمل برأسه .. ولكن الأيدى الواعية والرؤوس المثقفة تعمل معا من أجل بناء شىء واحد ..

فالسد قد علمنا قيمة العمل الجماعى ، والمسئولية الجماعية ..

ونحن يجب ألا تبهرنا هذه الصخور الهائلة . ولا هذه الكراكات المخيفة . ولا الأنفاق الرهيبة . ولا الأنابيب المتوحشـــة .

فليست هذه الكراكات الا أطرافا صناعية ابتداعها الانســـان ليستغنى بها عن يديه ورجليه .

* * *

فأنا بأصابعى أستطيع أن أحطم قطعة السكر .. ولكن بهذه الأصابع الصناعية أستطيع أن أنقل جبلا .

وليست هذه التجاويف الهائلة فى الصخور ، الا من صنع تجاويف صغيرة جدا فى رأسى . وليست هذه الأنفاق والأنابيب الا انعكاسا لشعيرات وتلافيف هزيلة فى مخى .

فالذى أمامى لا يبهرنى ولا يدهشنى لأن مصـــدر الدهشـــة والانبهار هو شىء صغير جدا أحمله على كتفى .

ففرق كتفى توجد القدرة الخـــالقة . يوجد التصميم والتنفيذ معـــا ..

فنحن عند ما نشيد بالسد العالى ، انما ننسى الانسان الذى تصوره بعقله ، وأقامه بيديه .

فنحن يجب ألا نتوج السد العالى ونخلع الذين بنوه •

وانما يجب أن نتوج الذين بنوه • لأننا سنعيد تتويجهم مرة أخرى عندما ينفضون أيديهم من رمال وصخور أسوان • ويبدأون فى عمل جديد •• أصعب وأبقى !

فما كان من الممكن أن يوجد سد لولا الانسان الذى تخيله وأوجده بعد ذلك ••

فليس السد الا « مناسبة » يظهر فيها الانسان قدرته اليوم •• وقدراته غدا •• !

وبظهور السد ينتهى عصر بناة الأهرام ••

عصر الذين يقدسون الموت • وما بعد الموت •

فقد كان بناة الأهرام • يقتلون الشعب بالعمل والكرباج لكى يبنوا هذه المقابر الضخمة ايمانا منهم بأنه لا حياة الا بعد الموت • ولا سعادة الا فى القبر • وأن الحياة قنطرة وعلى الناس أن يعبروها لا أن يعمروها !

ثم ماذا فى القبر ؟

فى القبر غرف مفروشة ، فيها ذهب وماس وفيها طعام وشراب وفى القبر سراديب لتضليل اللصوص • وأبواب سحرية • وفى القبر خط الموكب الملكى من الدار الى النار أو من النار الى الجنة •

وفيه خريطة للهرب الى العالم الآخر ، الذى هو تحت الأرض أو وراء الشمس ..

لقد عاش بناة الأهرام من أجل أن يموتوا ..

وعاش الشعب من أجل أن يموت . وهو يبنى مقابر هؤلاء الملوك ..

فالشعب صناعته القبور .. كل الشعب من الحانوتية .. وأغانى الشعب هى أغانى الموت ..

ومات الشعب وبقيت هذه الأهرامات . وبقيت أضرحة خوفو وخفرع ومنقرع !

وببناء السد لابد أن تنتهى هـذه الروح القاتمـة العميقة الحزن ، والأسى .. الرطبة كغرف الدفن . المظلمة كالسراديب . الهائمة كدخان البخور . وأن تختفى عقلية الحانوتى ، وتواكل المصاطب . وكتب الموتى . والكاتب الجالس القرفصاء !

والشعب الذى فرض عليه أن يبنى مقابر ملوكه . اختار اليوم أن يبنى السـد ..

وليس السد عاليا كالهرم . ولكنه أعمق ..

السد مصنع ومزرعة وجامعة وأسلوب عمل ، ورمز حياة .

لا حياة فرد واحد بعد الموت . ولكن حياة الملايين قبل الموت.

وبارتفاع السد يجب أن تنتهى الروح الهرمية • أو هـذه « العقلية الهرمة » •• وأن نفسح الطريق أمام « العقليـة السديدة » التى أرادت الحياة • فأقامت السد أو التى أرادت السد لتقيم لها حياة أفضل •• !

* * *

ومن ألوف السـنين كان الملك سليمان يتأمل فى السـماء والأرض ، ويبدو أنه قد فهم كل شىء حوله •

ولكن شيئا واحدا لم يستطع أن يجد له تفسيرا ••

لقد كان ينظر الى ماء الأنهار • فيجده يصب فى البحر ، كان يقول : الأنهـار تصب فى البحار • فلا الأنهـار جفت • ولا البحار امتلأت •

وطبعا لم يكن الملك سليمان يعرف قوانين تبخر المياه من البحار وسقوطها مطرا فوق الجبال • ثم نزولها الى الأنهار •• ثم الى البحار •• والى الأبد !

ولكن الملك سليمان لم تصل حكمته الا الى أنه يمكن الفصل بين الماء العذب والماء المالح •• ولم يتصور أبدا أنه يمكن وقف ماء الأنهار العذب حتى لا ينصب كله فى البحر •• لم يتصور أن هـذا ممكن •

وتوقف الملك سليمان عند هذه الظاهرة الغريبة .. ومات ومعه هذا اللغز . ومضت على ذلك ألوف السنين .

ونحن نرى اليوم أن وقف ماء النيل عن البحر ليس صعبا ولا لغزا .

فقد حققنا ما رآه النبى سليمان مستحيلا .. ونفذناه فى بضعة أيام . وبعدد قليل من الناس .. وانشغلنا بمشاريع أخرى أصعب من السد العالى .. هى بناء الذين يبنوا السد !

فوضع حجر فوق حجر ، هذا سهل ، ووضع البذرة المناسبة فى التربة المناسبة هذا صعب . وتعلم الناس كيف يحولون التراب الى ذهب ، وكيف يحولون المادة الى طاقة . وكيف يصونون الطاقة . وكيف يبنون ليعيشوا فى خير وسلام .. هذا هو الصعب جدا !

ولكن بتكرار تجربة السد ، أى تجربة العمل معا ، والصبر والتصميم سيصبح كل صعب سهلا !

الصفيحة والعمر!

كل انسان يحمل طفولته على رأسه كأنها صفيحة ماء .. تظل هذه الصفيحة تهتز طول عمره . ويتساقط منها الماء .. وقطرات هذا الماء مختلفة الأحجام ، ولا توجد لهـا مواعيد محددة ..

ربما كانت المواعيد المحددة لسقوط الماء هى حالات الانفعال الشديدة .. كالخوف والفزع والشعور بالخطر ..

وفرويد يقول ان الانسان عندما ينفعل جدا ، فانه يرتد الى طفولته ، أى يتحول الى طفل كبير ..

وفى لحظات التحول ، هذه ، الى طفل ، تهتز صفيحة الماء وتتساقط قطراتها ..

وسيبقى الماء يتساقط من صفيحة طفولتك . ولا داعى أبدا أن تغير ملابسك . ولا أن تغير طباعك ولا أن تقاوم هـذه الطفولة التى هى ماضيك . فلا أحد يستطيع أن يتخلص من ماضيه . وان كان من الممكن أن تتخلص من ملابسك الصغيرة . البنطلون الصغير فوق الركبة . والقميص الذى فى حجم منديل اليد .

ولكن الأيام التى كنت تلبس فيها البنطلون القصير والقميص الصغير ، وكانت لك ريالة • هذه الأيام ستبقى منقوشة على أشرطة ريكوردر غريب جدا فى رأسك •• بل ملايين الأشرطة الدقيقة فى رأسك ••

وفى الأسبوع الماضى حدث لى شىء غريب • وأحسست أن صفيحة المـــاء التى أحملهـــا على رأسى ــ مثلك تماما ــ قد انفتحت وأن الماء نزل على خدى وتجاوز خدى وصدرى • وحاولت مقاومة الماء • ولكن هذا الماء أطاع قانون الجاذبية الأرضية طاعة عمياء • واحتراما منى للقانون لم أتدخل فى نزول الماء • واستنكارا منى لأن يكون التنفيذ أعمى • حاولت أن أمنعـــه ••

فقد قابلت رجلا كان يدرس لى الحساب عندما كنت تلميذا صغيرا فى المنصورة • وأنا فى الحقيقة لم أقابله • وانما وجدته أمامى •• اصطدمت به واصطدمت به فى نفس الوقت الصفيحة التى فوق رأسى •• وبدون تفكير منى تساقط الماء • وبدون تفكير منى وضعت يدى على أذنى فقد كان من عادة هذا المدرس أن يقرص الطلبة فى آذانهم •• ومن الغريب أننى سلمت عليه بيدى اليسرى •• ونسيت أن يدى اليمنى على أذنى •• ولم أفكر فى أن أغير هذا الوضع •

واندهش الرجل جدا كيف أننى أقابل فرحته بلقاء أحـــد تلامذته بهذا الشكل الغريب •• وسألنى : سلامك يدك ••

وهنا فقط تنبهت الى هذه الحركة اللاشعورية التى جمدت

يدى على أذنى •• كأن الماء الذى سقط من الصفيحة كان باردا جدا •• أو كان دشا مثلجا •• ولم أجد ما أقوله لهذا الأستاذ عندما وضعت يدى على أذنى •• ولا عندما أحسست بالارتياح لأننى لم أعد تلميذا ، ولأنه لم يعد قادرا على قرص أذنى ، ولا عندما مددت يدى أودعه فقرصته هو من أذنه !

لقد كانت حركة يدى لاشعورية فى المرتين ••

ولكن فى المرة الأخيرة • أعتقد أن الصفيحة كلها قد تسللت تحت ملابسى •• وامعانا فى اغاظتى • لم يشأ الماء أن يحترم قانون الجاذبية الأرضية • فلم تسقط قطرة على الأرض ان الذى سقط هو قلبى ملفوفا فى كسوفى •

فمعذرة أقدمها لك أيها الأستاذ الطيب • باعتبارى ولى أمر هذا التلميذ الصــغير !

أى فنان مشكلة !

طعام الأغنياء فى حاجة الى معدة . ومعدة الفقراء فى حاجة الى طعام .. فالغنى يحسد الفقير على معدته .. والفقير يحسد الغنى على طعامه .. ويحسد الفقير أيضا على شهيته المفتوحة . وعلى أسنانه القوية وعلى معدته التى تهضم الظلط . وعلى صدره العارى فى مواجهة الريح .. وعلى شىء أهم من هذا كله على أنه يحب الحياة . وعلى أنه يعيش بشىء آخر غير الخبز .. فليس بالخبز وحده يعيش الانسان . فالأغنيـــاء يملكون الخبز . ولكنهم لا يعيشون .. والفقراء لا يجدون الخبز .. ولكنهم يعيشون .. يكفى أن عندهم أملا فى خبز أحسن وأكثر .. سواء فى هذه الحياة أو فى الحياة التى بعدها . فالذى يملك الأقل . يملك الكثير . والذى لا أمل له .. هو من أفقر الفقراء ــ فاذا أكل فلا أمل عنده فى أن يكمل طعامه . واذا أكمله فلا أمل عنده فى أن تقوى معدته على هضمه ، واذا هضمته معدته فلا أمل عنده فى أن ينجو من المرض ، واذا مرض فهذه نهـــايته !

فالحياة هى أخت الأغنياء .. مجرد أخت ، أى لا تحل لهم ..

ولكن الحياة هى عشيقة الفقراء والفنانين .. تحن لهم . هى وألف واحدة غيرها !

فالتاجر الذى ينجح فى عمله ، ويجمع المال من كل مكان لا يهمه فى الدنيا الا أن ينجح دائما بكل وسيلة . فالنجاح هو الإله الذى يعبده . وهو مشغول بالنجاح عن الحياة فالحياة طعام ودفء وسيارة وفلوس وسلطان يجده الرجل الغنى دائما ، فى يده دائما . فى جيبه . فى مكتبه . فى بيته . ولكنه يحسد الذين يجدون المعنى الكبير فى الطعام القليل . فى كوب الماء البارد . فى نسمة الهواء . فى شبر من الظل .. فى نظرة الى السماء !

ولذلك كان الخلاف دائما بين التاجر والفنان .. بين الذى ينتج الطعام ويبيعه ولا يذوقه . وبين الذى يستهلك الطعام ويذوقه ..

* * *

هذه المعانى كلها تدور فى حرارة وصراخ فى مسرحية « الاله الكبير براون » للكاتب الأمريكى يوجين أونيل والتى ترجمها جلال العشرى . وكتب لها مقدمة طويلة دريني خشبة ، وربما كانت هذه المسرحية الخامسة التى ظهرت بالعربية للمؤلف الأمريكى . فقد ترجم له جلال العشرى أيضا مسرحية « القرد الكثيف الشعر » . وترجم له كمال الملاخ مسرحية « التيه » وظهرت مسرحية « رغبة تحت شجر الدردار » .. وأنا ترجمت له مسرحية « الامبراطور جونز » . ولا شك أن هذا الكاتب العظيم يستحق كل هذا الاهتمام بمسرحياته . ويستحق الدراسة العميقة أيضا . فهو رجل جاد ، ويعنى ما يقول . ثم أنه مهموم بمأساة الانسان وصراعه مع نفسه ومع غيره ..

وفى هذه المسرحية نجد أمامنا شابا أسمه « براون » ·· أبوه غنى · ويريد أن يجعله مهندسا معمـاريا ليرث أمواله الكثيرة · ويدخل هذا الشاب الجامعة ويدرس ويتخرج ويدير شركة أبيه ويصبح رجلا مشهورا ناجحا بلا أى مجهود · وكل أولاد الأغنياء لا يصعدون السلالم · وانما السلالم هى التى ترتفع بهم · انه لا يتحرك ولا يمشي كأنهم سيدخلونه فى مسابقة أتخن انسان فى العالم · ان أبناء الأغنياء يعيشون وحدهم · لأنه ليس من المفروض أن يرافقوا أحدا من الناس ··

وأمامنا شاب آخر زميل له اسمه « ديون » ·· أبوه شريك لوالد « براون » فى انشاء البيوت · وأبوه يريد أن يكون مهندسا معماريا أيضا يكسب الألوف مثلمـا كسب · ولكنه فى نفس الوقت لا يريد لابنه أن يدخل الجامعة ·· فالجامعة لا تعلم الناس الا الاعتماد على الغير · ولكن يريده أن يعتمد على نفسه وأن يشق طريقه بيديه ورجليه · وأن يمشى ويجرى · كأنه سيدخل فى مسابقة أنحف رجل فى العالم ·

والشابان يحبان فتاة واحدة هى مرجريت ·· ومرجريت هذه نموذج للأنوثة الخالدة ·· أو للحياة المتجددة · وبراون يحب هذه الفتاة · ولكن الفتاة تحب الشاب الآخر « ديون » ولكن براون راح يتغزل فيها · وكلما راح براون يتغزل فيها أخذت هى تتغزل فى ديون الفنان الذى يستطيع أن يرسم كل شيء وبصورة جميلة · والذى هو يشبه القمر ·· الذى يسطع على صدر البحر دائما وهى هذا البحر وأمنيتها الوحيدة من الحياة أن يظل القمر فى مكانه على صدر البحر ··

ويتزوج الفنان هذه الفتاة • ويظل المهندس يحبها • وينجب الفنان ثلاثة من الأبناء ••

ويظل المهندس المعمارى والتاجر الغنى يحب زوجة الفنان • التى لا تزال عاشقة مجنونة بزوجها ومواهبه •

أما الزوج الفنان فهو يعمل فى مكتب المهندس المعمارى • والزوج الفنان مخمور طول الوقت • وهو أيضا نادم أشد الندم على هذه الحياة • ولا يعرف كيف يتخلص من الخمر أو هو لا يريد أن يتخلص • فهى وحدها التى تجعله قادرا على أن يعيش حياته •• وعلى أن يكون قريبا الى نفسه •• تماما كالمتصوفين الذين يشعرون بنشوة الايمان والفناء فى الله وعلى الرغم من أن هذا الفنان هو الخالق الحقيقى لكل التصميمات التى يبيعها المهندس ويكسب منها ••

فانه جندى مجهول • فهو الذى ينتج اللوحات • ولكنه ليس هو الذى يبيعها وليس هو الذى يكسب منها • والناس لا يتحدثون عن الفنان المجهول وانما يتحدثون عن المهندس المشهور • ولكن الفنان يعلم علم اليقين أنه هو مصدر هذه الثروة • رغم أنه يعيش فى الظل • فهو كالميت أو كالشبح • ولكن هذا الشبح هو مصدر حياة هذا المهندس الذى لا حياة له ولا فن له • ولا قدرة له على الخلق • فالفنان الميت هو الحى بالفعل • والمهندس المعروف هو الميت بالفعل !

والمهندس التاجر الناجح يحسد هذا الفنان ••

يحسده على حب زوجته له • رغم أنه لا يملك شيئا • وهو

يحسده أيضا لأنه يحب زوجته • ويحب الحياة ويحب الناس كلهم • يحسده على قدرته على أن يحب • وهذه القدرة على الحب هى التى تمكنه من الحياة • فلا حياة بغير حب • وكل انسان يحب • وكل الناس يحبون بعضهم بعضا • والناس يحبون الله • والله يحب الناس ••

والحب كلمة قديمة •• أنه شبح كلمة • انها كثوب قديم ممزق •• ولكن يفقده الأغنياء الذين لا يعرفون الا الكراهية المدججة بالسلاح •• والحب كوجه مكشوف يستجدى الحياة على كل باب وبكل ثمن ••

ويموت الفنان فى احدى نوباته القلبية أو العاطفيـــة •• ويخلق موته مشكلة حقيقية • فالمهندس الذى يعيش على لوحاته لا يستطيع أن يواجه الناس وحده • فهو لا يعرف كيف يرسم وانما الذى يقوم بهذه الرسومات هو زميله الفنان « ديون » •• وكان لابد أن يوهم الناس بأن الفنان حى ، لكى يقبل الناس لوحاته • ولكنه فى نفس الوقت يشعر بشىء من الارتياح لأن وفاة هذا الفنان قد أزالت من نفسه أسباب حسده • وأسباب حقده عليه •• ثم أزالت شعوره الدائم بأنه ليس حيا وبأنه يعيش على دماء الآخرين • على حيـــاة الآخرين •• وأنه هو شخصيا عاجز عن الحياة وعن الابداع الفنى •• ثم انه عاجز عن اقناع زوجة الفنان بأن تحبه وأن تقتنع به وأن تجد فيه أية ميزة •• ولكنها لا ترى الا زوجها • ولا ترى فى هذا المهندس الا أخا • ولكنها ترى فى الفنان زوجا وصديقا وعشيقا • وهذه الزوجة هى رمز للحياة فى المسرحية • التى هى حلال على الفنان • حرام على التاجر !

ويحاول التاجر أن يؤدى دور الفنان . أن يمثل حب الحياة وحب الزوجة . وينجح فى التمثيل .. ينجح فى عمله وفى بيت صديقه .. ثم ينطلق عليه الرصاص . رصاص الواقع ويموت المهندس وهو ما يزال فى ثوب الفنان .. ويسجل القتيل فى دفاتر البوليس على أنه انسان .. أى انسان حاول أن يكون فنانا فمات .. انه رغم غناه وثروته عجز عن أن يموت فقيرا فنانا !

* * *

ومسرحية يوجين أونيل رمزية .. فيها أسلاك مكهربة .. وهذه الكهربة تصدم ، وفى نفس الوقت تلسع وتوجع وتضىء كأنها ، برق ورعد فى ليالى النفس الانسانية المظلمة ..

وهى فى نفس الوقت تكشف الحياة فى أمريكا وتفضحها .. حياة التجار الجشعين .. الذين يأكلون بعضهم بعضا ، ولكن لا طعم للحيـاة عندهم . ولا وقت للحب عندهم . ولذلك يتضـخمون ويموت الى جوارهم أناس يصرخون . وهؤلاء الصارخون أحسن حالا منهم . لأنهم قادرون على الاحساس . على الشكوى على الصراخ . على الموت . وهم فى موتهم هذا يمدون هؤلاء الأغنياء بالحياة .. فالميت هو الحى ، والحى هو الميت . والغنى القاتل هو القتيل .

وقد استطاع جلال العشرى . فى ترجمته لهذه المسرحية أن يحتفظ لها بالصورة الشاعرية .. وبالجو الصوفى . فجاءت جميلة حارة .. وليس عرضى لهذه المسرحية الا تلخيصا سريعا .

وليس الا اشارة بسيطة جدا لحياة معقدة متضاربة غامضة . ولكن هذا الغموض قد اختاره المؤلف عمدا فليست الحياة بهذه البساطة ، ولا بهذا الوضوح .. ان الوضوح هو أحد آمال الفنان والعالم ، وأحد آمال الحياة نفسها . فهى تكشف عن نفسها كل يوم بشكل ولون وحجم .

* * *

والعبارة التى قالها الفيلسوف الاسبانى سانتيانا بعد الثلاثين عاما التى قضاها فى أمريكا صحيحة تماما .. فهو قد وصف المجتمع الأمريكى بأنه : مجتمع الرجل المنتج الذى يصنع السلعة . ثم يخلق الرغبة فيها . فهو ينشر عنها ويدعو لها ويرغم الناس على استهلاكها رغم أنهم لا يريدونها ورغم أنهم لا يحتاجون اليها .. ولذلك امتلأت المحلات بأدوات الافطار وصابون الحلاقة والأسطوانات الصارخة وأساتذة الجامعة . والسيارات المجنونة التى تطارد القرش الأبيض فى أى مكان من العالم وبأى ثمن . وأثناء المطاردة يأكل الناس طعاما فاسدا يصيبهم بالمرض . وقبل أن يحس الناس بأمراضهم تتساقط عليهم أدوية جديدة .. هذه الأدوية اشترك فى انتاجها نفس الرجل الذى اشترك فى انتاج الطعام الفاسد !

ولا ينتهى الصراع بين التاجر والفنان .. بين الذى يجد الطعام . ولا يستطيع أن يتذوقه وبين الذى وجده وتذوقه .. أى بين الذى يعيش وبين الذى يتألم !

كصاروخ إلى القمر

قرأت قصة حياة فتاة انجليزية . ليست لها حيـــاة بالمعنى المألوف عندما نتحدث عن أديب كبير أو فنانة عظيمة . ولكنها رغم صغرها ، ورغم أنها لم تصدر الا عملا أدبيا واحدا ، يعتبرونها من أديبات الصف الأول فى بريطانيا . وبعض النقاد يقولون : بل فى أوربا كلها .

الأديبة الصغيرة اسمها شيلا ديلانى ..

وهى دون الثلاثين . وعملها الأدبى الوحيد اسمه « لمســـة العسل » . ويظهر أن هذه الأديبة راحت تنمو على مهلها وبعيدا عن العيون . فلما ظهر عملها الأدبى مثل ثمرة ناضجة . أخذ النقاد يبحثون عن أصل الشجرة والتربة التى عاشت عليها ، ومن أين جاءت ولماذا لم يرها الناس وهى بذرة ثم وهى شجرة يانعة .. ولم تشأ الأديبة الصاروخية أن تتحدث عن حياتها . ولا كيف نشأت ولا من أين جاءت وانما قالت عبارة واحدة هى اننى مسحت البلاط قبل أن أمسك القلم !

ومسح البلاط تعبير مألوف ، وأول ما تقع عليه عينك تفهم منه أنها : بتوتعذبت وتبهدلت قبل أن تصل الى التأليف .

فالتعب والعذاب والعرق والدموع ، والصبر والحرمان هى الهواء الذى يتنفس فيه الناس . ولذلك فاذا قال لك أى انسان انه يتنفس . فليس فى هذا شىء جديد الا اذا كان هذا الانسان مزكوما مثلى معظم الوقت !

ولكن الأديبة الانجليزية مسحت البلاط فعلا .. فى كثير من المطاعم والفنـادق . واشتغلت بائعـة للصحف واشتغلت بائعة للتذاكر . وطردت من عملها فى احدى المرات عند منتصف الليل، وكان عليها أن تقطع الرحلة المظلمـة الممطرة ، بين منتصف الليل ومطلع النهار ، بين لندن وبين احدى المدن التى تبعد عنهـا مائة كيلو متر ، وليس فى جيبها مليم واحد . وكان عليها أن تمشى على قدميها ووحدها ، وكان عليها أن تقنع نفسـها طول الوقت بأن الحياة هى كل ما أعطى لهـا . وأنها لا يجب أن تنتحر يجب أن تعيش حتى لو رفضها كل أصحاب المطاعم والفنادق فى بريطانيا . فاذا طردوها فمعنى ذلك أنهم يعترضـون فقط على أسلوبها فى العمل ، أو حتى معاملة الناس .. ولا يمكن أن يكون الاعتراض على العمل أو على الأزياء التى ترتديها ، اعتراضا على وجودهـا كله .. اعتراضـا على شخصيتها على الأفكار التى فى رأسها ، ولم تعلن عنها بعد .. ولذلك لم تنتحر . لأن الذى ينتحر هو الذى وقع فى أزمة . هذه الأزمة معناها : ان هناك اعتراضا جوهريا على وجوده .

وفى حديثها فى الراديو قالت : لا أحد يستطيع أن يعترض على وجودى كله . أنا فقط التى اعترض على وجودى وأنا فقط التى أختار حياتى . ولم يرغمنى حتى الآن أى انسان أو آية فكرة أو

أى موقف على أن اعترض على وجودى .. ولذلك فأنا أعيش . أنا أحيا بلا اعتراض من أحد !

والذى أعجبنى فى هذه الكاتبة الجديدة هى أنها لم تفكر لحظة واحدة فى أن تتفرغ للأدب منذ أحست برغبتها فى الكتابة . وأنها أحست أن اشتغالها بأعمال كثيرة هو من صميم الأدب . ومن صميم ممارسة الحياة ، ومعاناة الواقع .. فكل هذه التجارب السريعة الأليمة ، ليست الا نوعا من التدريب على الاحساس بالناس . وعلى الاتصال بهم والاصطدام بمصالحهم . لأنه لا فن بلا تجربة .

فالفنان يجب أن يبدأ حياته تماما كالنمل الذى يختزن فى أوكاره كل طعامه من أى مكان .. مجرد أن يختزن . وبعد ذلك يجد الفنان نفسه وقد تحول من نمل الى نحل .. أى مجرد حيوان يختزن . الى حيوان يحول هذه المواد التى اختزنها الى رحيق من العسل .

وأنا يعجبنى جدا ذلك الطريق الذى سارت فيه الأديبة الجديدة . فهى لا تعتبر أنها أخطأت الطريق الى الأدب أو الى الفن .. وانما هى مشت فى الطريق العادى جدا : أى طريق التجربة الشخصية ومصافحة الناس وجوههم أيضا بعينها وبمشاعرها .

ويظهر أن الأديب أو الفنان فى بداية حياته لابد أن تمتلىء بالناس ولكن عملية الامتلاء هذه محتاجة الى مجهود تماما كالساعات القديمة . التى لابد من استخدام مفتاح لكى تملأها به وبعد ذلك يتعود الأديب على التجربة وعلى الناس ، فيمتلىء من تلقاء نفسه كالساعات السويسرية التى تمتلىء بمجرد الاهتزاز .

وأنا فيما يلى أنقل عينات فقط من حـــديث الأديبة الانجليزية كدليل على تواضعها ، وعلى فهمها لرســالة الأديب والفنان فى المجتمع :

س : أنت تعتبرين نفسك من أية مدرسة أدبية ؟

ج : أنا لا أعتبر نفسى أديبة لأننى أصدرت كتابا واحدا . وأن هذا الكتاب ليس الا بطاقة شخصية كتبتها بسرعة .

س : ولكن على أى حال هــذا الكتاب يعتبر عملا أدبيا ، أو على الأقل هذا هو رأى النقاد الكبار ؟

ج : طبعا هذا عمل أدبى . ولكنه أول أعمالى الأدبية . ولذلك فأنا أعتقد أن النقاد أميل الى تشجيعى وأبعد عن تقدير قيمتى الحقيقية .. وليس كلامى هذا الا رأيا فقط .. ولكنه ليس نقدا لنقـــد هؤلاء النقاد الكبار .

س : قرأت شيكسبير طبعا ؟

ج : لم يتســع وقتى للتـــأمل الطويل فى مسرحيات هذا العبقرى ..

س : هل قرأت لكل الشعراء الكبار فى العالم ؟

ج : يمكننى أن أقول لك : اننى لم أقرأ شيكسبير قراءة واعية ، لتعرف مدى عجزى وضيق أفقى الأدبى .. وأنا لم أصل بعـــد الى حالة اليأس من نفسى .. فقد عرفت أن أدباء كبارا

لم يقـــرأوا كل مسرحيات شيكسبير •• وبالطبع كل مسرحيات الشعراء العظام فى بريطانيا وفى العـــالم • ولا قرأت ســـارتر ولا فوكنر ولا جينيه •• وليس سرا أن أقول لك اننى لم أر معالم بلادى •• بل ولا معالم مدينة لندن !

س : أنت من رأيك أن المجتمع الانجليزى لا يزال ينظر الى المرأة على أنها أقل من الرجل •• لماذا ؟

ج : أنا أعتقد أن هـــذا ظلم اجتماعى فقط •• ممكن من الناحية العلمية نعرف أنه لا يوجد أى فرق فى تكوين جسم المرأة أو جسم الرجل •• وأن الاثنين من الناحية التشريحية لا يختلفان فى شىء • هذا من الناحية العلمية • ولكن هذه الحقيقة العلمية • مع الأسف • لم تنتقل الى كل الناس فى كل مجال • ولذلك بقيت هذه الحقيقة محبوسة فى بعض الكتب وبعض الرءوس التى ليس لها أى نشـــاط اجتماعى • •فكثير من الآباء والأمهات والاخوة يعاملون الفتاة المتعلمة العـــاملة أيضا على أنها انســـان ناقص التكوين •• بل يرون أن من حقهم وحدهم أن يختاروا لها عملها وأسلوبها فى الحياة • ويختاروا لهـــا زوجها •• بل ان الهيئات الحكومية لم تعط للفتاة التى اذا تساوت مع الرجل • فى العلم والعمل ، نفس الأجر ، ولا نفس فرص التقـــدم والمسئولية •• وأنا أرى أن هذا شىء أكثر من الظلم • لأن الظلم من الممكن أن يكون سببه الجهل • ولكن هذا الظلم الرسمى ظلم عن علم •• أى انه ظلم رغم العلم • فهو اذن ظلم مقصـــود • لماذا ؟ هذا ما أريد أن أعرفه ولا أستطيع أن أسكت عليه ••

(هذا الحوار أخذته عن كتاب بعنـــوان « الجيل الصارخ » لكاتب الانجليزى ادوارد لانكسرت) •

والذى يهمنى جـــدا من هذا النموذج من الأدبيات أنها جادة وأنها متواضعة وأنها ترى أن الاشتغال بالأدب أو بالفن يجب أن تسبقه تجارب • وما دامت هناك موهبة أدبية • فهذه الموهبة لا يمكن أن تصل طريقها الى هدفها مهما طال هذا الطريق ، ومهما تشعب ، ومهما امتلأ بالظلام تماما كالشمس • لابد أن تشرق من وراء السحب •• مهما كانت هذه السحب كثيفة ••

فالأديب أو الفنان يشبه الصواريخ التى نبعث بها الى القمر •• فهذه الصواريخ لا نطلقها فى اتجاه القمر •• وانما نحن نطلقها لتدور حول الأرض مرة ومرتين •• ودورانها حول الأرض يكسبها قوة واندفاعا شديدا • وبعـــد ذلك نوجهها نحن الى القمر ••

وكذلك الأديب ، فهو يلف ويدور ، واللف والدوران يعطيه قوة وحيوية ويملأ رأســـه • ويشحن قلبه • ويبرى قلمه • وبعد ذلك يتجه أقوى وأكثر حيوية وحرارة الى هدفه • الى أدبه وفنه !

❋ ❋ ❋

مصر الزراعية .. هبة النيل
مصر الصناعية .. هبة السد

ستعود شاعرا اذا ذهبت الى السد العالى .. فأنت لا تملك الا الدهشة ..

واذا حاولت أن تعبر عن دهشتك ، فلابد أن تستعير صلابة الصخور ، وايقاع المعاول ، وهدير الموج ، ووهج المصابيح . واصرار الآلات . واحترام الانسان الذى صنع السد العالى .. والذى حول الجرانيت الى عجين . ثم حول العجين الى جرانيت ..

حتى هذه الشاعرية التى ستصيبك هى بفضل الذين يعملون فى السـد .. فلولا العرق ، ما صنعوا شيئا يبهرك ويهزك . ويعتقل ويطلق خيالك ..

اننا نشبه الذى يركب زورقا فى ليلة مقمرة ..

فهذا الراكب يسند ظهره الى الزورق ويمدد رجليه ، ويتطلع الى القمر مرتين .. مرة فى السماء ومرة على الماء ، ومرة ثالثة فى عينى فتاة جميلة ، ومرة رابعة يغلق عينيه ويتخيل على ظهر القمر ما يشـاء ..

وفى هذه الأثناء يكون هناك رجل يقوم بتحريك المجاديف — ونحن نسمع لوقع المجاديف موسيقى .. وتارة نقول عن المجاديف انها تلطم الماء حدادا على القمر . وتارة نقول انها عكازان يتوكأ عليهما الزورق وهو يمشى فوق هذا البساط النقى .. ولكن الرجل الذى يستخدم المجدافين لا يحس لا بالقمر ولا بالنهر ولا النسيم ولا الموسيقى .. فهو لا يتنزه .. انه يعمل .. انه يعرق .. انه عربجى لحنطور بطىء .. لحنطور من نوع غريب .. فهو يقوم بدور الحصان والعربجى والكرباج فى وقت واحد .. فليس عنده وقت ليقول شعرا .. ولكن يجب أن يعمل ويعرق ويلهث ، لنتغزل نحن فى المـــاء وما فوق المـــاء ، وفى الســماء وما وراء الســماء ..

فشكرا للذين ليس عندهم وقت لنظم الشعر ، لأنهم مشغولون فى نظم الصخور ، وفى التوزيع الموسيقى المعاول ، وفى تلحين أنشودة العمل من أجل الخير والسلام ..!

* * *

فما الذى فعلناه بنهر النيل ؟

ان هذا النيل عجوز سفيه .. فكل ما يجمعه من أمطار الحبشة وغابات السودان يلقى به فى البحر الأبيض ..

وظل كذلك ألوف السنين .. ولم يجد أحدا يقنعه بالعدول عن هذا الاسراف وهذا الجنون . بل انه وجد أناسا يقيمون حوله

المعابد ويقيمون حول المعابد لا يبرحونها كأنهم أشجار ، أو كأنهم أحجار • ويكرهون الهجرة • وانما يولدون ويموتون فى نفس المكان ••

وهم يعيشون ويموتون على نزواته ••

فهو عجوز يتصابى ••

فاذا فاض ماتوا من الغـــرق ••

واذا غاض ماتوا من العطش ••

وكثيراً ما حاولوا أن يسترضوه فأقاموا له المآدب وألقوا فى أحضانه بأجمل عرائس البلاد ••

ولكن أحدا لم يعترض على نزواته •• ولا على وحشيته وأكل لحوم البشر •••

وكان لابد من أن « نحجر » على هذا الأب السفيه ••

وكان لابد من آن نصادر مياهه لصالح الشعب ••

فاستدرجنا النيل الى كهف بالقرب من مجراه • وفى هذا الكهف أعددنا له أنفاقا هائلة ••

وعندما دخل هذه الأنفاق وجد نفسه محبوسا • فهو لا يستطيع أن يخرج منها الا بحساب •• فليست هذه الأنفاق الا أنابيب ،

وعلى هذه الأنابيب توجد حنفيات •• نفتحها ونقفلها عندما نريد ، لا عندما يريد ••

شيء غريب جدا هذا الذى صنعه أبناء النيل •• لقد كان النيل نهرا من نبعه الى مصبه • فأصبح نهرا فقط الى ما قبل السد • أما بعد السد فهو قناة من صنعنا • ونحن أصبحنا قادرين على أن نجعلها فى حالة فيضان دائم •• دون أن نلقى فيها بخيط واحد من فستان أى عروس !

وعندما تنزل المياه من هذه الحنفيات ، فانها تسقط على عجلات •• وتظل هذه العجلات تلف بسرعة هائلة •• فكأن المياه قد تحولت قطراتها الى ملايين الأصابع ، وهذه الأصابع تدير هذه العجلات • ومن دوران العجلات تتولد الكهرباء • وتتحول هذه الكهرباء الى أصابع سحرية تدير المصانع •• وتتحول أيضا الى أعواد كبريت وشموع • تنير الظلام الخالد لقرى مصر ••

ويختفى الطنبور والشادوف والساقية والمصطبة • والتواكل ومصباح الغاز والخرافات ••

ولا تصبح الأهرامات هى الرمز الحقيقى لبلادنا ، فليست الأهرامات الا مقابر تدل على تقديس مصر القديمة للموت •• وانما يصبح السد العالى هو الرمز الحقيقى ؛ لأنه يدل على سيطرة الانسان على الطبيعة ، وتحكم الانسان فى مصيره وأنه أراد ففعل •• وأنه صبر فنال •• وأنه تعب فعاش •• وأنه عاش كما أراد !

وبعد اليوم لن نقول : الوجه البحرى والوجه القبلى • فكلنا نقع بحرى أسوان • فكلنا نعيش فى الوجه البحرى ••

ولابد أن تتغير نظرتنا الى الجنوب •• فلم يعد الجنوب منفى لكل عامل وموظف • وانما هو أمل كل صاحب خبرة • كل مهندس • كل طبيب • كل الأيدى المثقفة ••

وسيصبح كل هؤلاء ضيوفا على السد العالى ••

ضيوف من كل البلاد التى تقع بحرى أسوان ••

اذن سيهاجر أبناء مصر من أقصى الشمال الى أسوان •• فلم يعد من الضرورى أن يعمل الانسان بجوار أهله •• بجوار أرضه •• بجوار المقابر التى دفن فيها أجداده ••

لن يكون المصريون كالأشجار تنمو وتكبر وتذبل فى نفس المكان •• وانما سيتحركون •• سيعيشون فى أى مكان •• فكل مكان به مصنع والى جواره توجد مدرسة ومستشفى وسوق وبيت ومزرعة ••

ان السد العالى • قد سد الطريق الى الشمال والزحف الى الشمال •• والحياة فى مدن الشمال ••

ان السد العالى ، قد فتح الطريق الى الجنوب ومدن الجنوب • والحياة فى هذه البلاد التى كانت مهجورة والتى كانت منفى لكل مغضوب عليه فى القاهرة والاسكندرية ••

ان جمال عبد الناصر الذى قضى على هـــذا الاقطاع المائى • أستطاع قبل ذلك أن يقضى على الاقطاع الزراعى ••

انه غير مجرى الحياة على جانبى النيل ••

فما أسهل أن يغير ـــ بعماله وخبرائه ـــ مجرى النيل ، وشكل الصخور ، وخريطة الحاضر ، وصورة المستقبل !

لقد سافرت الى أســـوان •• فرأيت واندهشت •• وسمعت وانبهرت •• وعندما تكلمت خطبت •• وعندما كتبت تغنيت •• وبعـــد أن غنيت صفقت وأحنيت رأسى ••

في الأدب والفن

ليست الأعمال بالنيات

الأديب يجب أن يعيش عصره . وأن يعيش به . وأن يعلو عليه ..

فهو بذرة توضع فى الأرض وتنمو وتعلو على الأرض . وهى فى الحقيقة تعلو بسبب هذه الأرض ..

والأديب مثل سفينة تتحرك بالماء وتعلو على سطح الماء . والذى يرى السفينة يخيل اليه أنها تجر الماء وراءها فى حين أنها محمولة على أعناق الموج .

والأديب يجب أن يصور العصر الذى يعيش فيه ..

وهو لذلك مؤرخ ..

فأهل عصره يقرأونه ويفهمونه ويحسون به . لأنه سبقهم ، ففهمهم وأحس بهم .. فهو كتب عنهم وكتب لهم .

أى ان الأديب يكتب للناس عن الناس .

والأديب ، لأنه فنان ، ليس مؤرخا فقط ولذلك عندما يكتب عن عصره • يضع أفكاره فى اطار يعيش بعد هذا العصر • فاذا كان التاريخ هو مادة الأديب فان الفن هو الاطار • وكل ما هو تاريخى هو مؤقت • ولكن كل ما هو فنى باق الى الأبد •

ولذلك فالفنان يملأ يده بالحاضر ويملأ اليدى الأخرى بالمستقبل •• أو هو ينظر بعين الى الحاضر •• ويتطلع بعين أخـرى الى المســتقبل ••

والعمل الفنى هو الجسر الذى يعبر به الأديب من الحاضر الى المستقبل ••

ولا أدب بغير حرية ••

ولا توجد حرية جاهزة•وانما الحرية يكسبها الانسان ويكتسبها يوما بعد يوم ، فالأديب يجب أن يفتش عن الحرية له وللناس • فالحرية فى كل مكان يقيدها الفقر ، ويهدها المرض • ويضـــللها الجهل • وعلى الأديب أن يرفع هذه القيود عن الناس •• وعليه قبل ذلك أن يتحرر هو من قيوده أيضا : من نزواته من طبقته من أوهامه ••

فالحرية عمل مستمر •• عمل يقوم به لنفسه ولغيره ••

ولا يمكن أن يرتضى فنان حر أن تكون حريته فردية •• فيكون حرا ولا يهمه أن يبقى الآخرون غير أحرار • فهو يتحرر للناس

ويتحرر بهم أيضا • فحريته مظهرها فردى ، ولكنها فى حقيقتها جمــاعية ••

ولا يمكن أن يكون الانسان أديبا يؤيد الظلم ••

فالأدب هو الحرية • ولا أديب بغير حرية ••

وهذا هو القيد الوحيد الذى يربط الفنان : هو أن يكون حرا وأن ينشد الحرية وأن يؤيدها • حرية الناس من الجوع ومن المرض ومن الجهل • حرية الناس من الناس •• من استغلال الانسان للانسان •• واستبعاد الانسان للانسان ••

هذا ما يجب أن يلتزمه الأديب •• والأديب ملتزم بطبعه ••

فلأنه أديب لابد أن يكتب • ولأنه أديب يجب أن يراعى القواعد الفنية • ولأنه حر • فهو مســئول عن نفســه وعن الآخرين ••

والأديب يلتزم واجبه • وواجبه يستمده من حريته ومن القيم الفنية والاجتماعية ••

ومن ألوف السنين خرجت الفنون كلها من المعابد •• فيها رائحة البخور وصدى الأجراس •• ونفحات السماء •• خرجت الفنون تفسر الأديان وتدافع عنها تدعو الى عالم فى السماء • أروع من عالم فى الأرض ••

ومن ألوف السنين كان الفنان ملتزما لدين أو لمذهب .. وكان يدافع عن أهله وعن قبيلته ..

وبعد ذلك خرجت الفنون من البيوت .. ومن المعامل . فالتزم الفنان أيضا مشاكل البيت ومتاعب لقمة العيش . وكفاح العمل ، وضرورة التغيير الاجتماعى ..

ولكن التزام الانسان لمذهب معين لا يكفى لأن يجعله فنانا أو أديبا .

وانما يجب أن تكون أعماله ذات قيمة فنية . فالفن هو الذى يهم ، أى الصدق والاخلاص والحرية التى توافرت لهذا العمل الذى يقدمه لنا ..

ففى الفن والأدب ليست الأعمال بالنيات ..

لأنه من الممكن أن يكون الانسان حسن النية وصادقا فى الدفاع عن مذهب ومع ذلك ليس أديبا ولا فنانا .

والشاعر العربى حسان بن ثابت كان من أشد الناس دفاعا عن الاسلام ، ولكن النقد الأدبى لم يضعه فى مرتبة الشاعر المتنبى ..

فالنية الحسنة جدا . والهدف النبيل جدا . والايمان الصادق . ليس هو القيم الفنية التى تجعل شعره يبقى الى

الأبد ، وانما الشعر يبقى بالفن •• يبقى بالاطار الأبدى الذى يحرص عليه الفنان مهما كان هدفه ومهما كانت غايته •

وهناك ثلاثة مواقف لأى كاتب ••

فالكاتب يكون « ملزما » اذا كان لا حرية له فى الدفاع أو التغيير عن مذهب اجتماعى سائد • فهو ليس حرا ولذلك فعمله ليس فنـــا •

والكاتب يكون « ملتزما » اذا كان له مذهب اجتماعى وفلسفى وعن طريق هذا المذهب يفسر كل شىء • وهو يلتزم بمذهبه هذا ويطبقه على كل شىء •• وليس من الضرورى أن يكون هذا المذهب الاجتماعى الســـائد فى عصره • ولكنه يلتزم بمذهبـــه الخاص • يتقيد به ويطبقه • ولكنه مع ذلك حر ••

ومن الممكن أن يكون الكاتب « ملزما » و « ملتزما » • فى نفس الوقت كأن يعتنق الكاتب مذهبا اجتماعيا •• أو المذهب الاجتماعى السائد فى مجتمعه ، وأن يؤمن بهذا المذهب • وأن يدافع عنه • فهو فى هذه الحالة ملزم بمذهب • وهو لأنه يؤمن به يجب أن يلتزمه ••

وهنا تلتقى القيود والحرية •• فالكاتب يتقيد بمذهب ويعبر نه بحرية •• وهو سفينة تحرك بالماء وضـــد الماء وتقاومه تعلو عليه !

ولا شىء يغرق السفينة الا الماء ، ولا شىء يعطيها الحرية من الغرق الا الحركة •• الا الهدف ••

والأديب الملزم هو حمام زاجل يحمل رسالة فى رجليه ويطير دون أن يشعر بأنه يحمل شيئا •• لا هو يشعر بقيد •• ولا نحن نشعر بأنه مقيد ــ كما يقول توفيق الحكيم ••

***

ومنذ ستين عاما وقع حادث فريد فى الأدب •• فقد تنكر كاتب عظيم لوطنه • لشعبه •• لثورة الناس على الطغيان وتساقطوا بالألوف • ولم يشــأ الأديب العظيم أن يسكت أو يدير ظهره للتاريخ وينطوى على فلسفته على المقاومة السلبية •• فعندما طلبت اليه صحيفة « التيمس » البريطانية فى فبراير سنة ١٩٠٥ أن يقول رأيه فى ثورة العمال والفلاحين فى روسيا ، أجاب ، بأنها طائشة وأنها سابقة لأوانها • وأنهم هؤلاء الثائرون لا يريدون الا قطعة أرض •

ذلك الكاتب العظيم هو الكونت تولستوى !

ومما قاله تولستوى أيضا : انه لا خلاص للمجتمع من الظلم الواقع عليه الا بالتمسك بالقيم الأخلاقية • ولم يذكر تولستوى من هو الذى يتمسك بالقيم الأخلاقية •• الظالم أو المظلوم ؟ وما هى القيم الأخلاقية التى تشــبع الجائعين وتفك قيــود الضائعين ؟

وكان تولستوى العظيم ملتزما لمذهب فى الأخلاق وفى التصوف • وكان انعزاليا فرديا • وكان فى استطاعته أن يحرص على التزامه • ولكنه خرج وثار يستنكر على شعبه أن يلتزم اتجاها جديدا للتحرر الاجتماعى ••

وكتب له جوركى رسالة ملتهبة ولم ينشرها مكتفيا بثورة الناس كلها على هذا الهوس الأعمى لفنان عظيم •

ومما جاء فى رسالة جوركى : ان اسمك العظيم يا كونت لا يعطيك الحق فى أن تظلم الأدباء والفنانين الذين يحبون بلادهم بصدق واخلاص ويعملون من أجل شعبهم •• يعملون أكثر منك يا كونت • ان من حقك أن تختلف معهم • ولكن ليس من حقك أن تحتقرهم •• أنهم يموتون بالعشرات بالألوف • رجالا أبطالا وفى عزلة •• ان هذه غلطة لا تغتفر يا كونت •• انك لم تعد تعرف ماذا يريده شعبنا •• ماذا يهم الناس ؟ ما الذى يعذبهم ؟ لقد حرمت نفسك هذا الشرف • يوم سددت أذنيك عن الناس •• انك لم تكن صادقا ولا مخلصا ولا كبيرا عندما وصفت هذه الثورة بأنها حمقاء وأنها سابقة لأوانها •• وانك أخطأت عندما نشرت هذا فى صحيفة انجليزية فتجعل ثورة الشعب نكتة فى أيدى الطفيليين والانتهازيين •• أنت غلطان يا كونت !

لقد كان فى وسع العجوز تولستوى أن يربط سنواته الأخيرة بالمستقبل ، ولكنه حرص على أن يعتقل نفسه فى ماضيه • فتنكر للحركات التحررية فى عصره •• وآثر أن يتزمت • وأن يزم

قوقعته عليه ، وأن يلعن بين الحين والحين كل محاولة لاخراجه من قوقعة عزلته ، من قرنه التاسع عشر .

وما فعله يوسف السباعى فى مقدمة روايته الرابعة « ليل له آخر » هو بالضبط ما يجب أن يفعله الفنان .

أن يعيش عصره ، وأن يسجله بحرية ، وأن يحرص على أنه فنان ، وأن يروى لأبناء عصره ما أحس به .. وأن يضع ذلك فى الاطار الباقى وهو الفن ..

لقد صـــدرت ليوسف الســـباعى رواية « رد قلبى » وأن موضوعها ثورة يوليـــو — رواية « نادية » عن التأميم .. و « جفت الدموع » عن الوحدة مع سوريا . وقد نبه يوسف السباعى القـــارىء الى أنه ليس من الضرورى أن يكتب فى السياسة ، أو يكتب أدبا سياسيا ، وأن أحدا لا يلزمه ، وانما هو الواقع والتجربة الاجتماعية الهائلة هى التى هزت أرضنا ، وصانت عرضنا ، وأكدت مثلنا .. فكان لابد أن ينفعل كانسان ، وأن يكتب كفنان فهو ليس ملزما ولكنه ملتزم لواجبه وضميره .

وهذا هو الالزام والالتزام معـــا ..

ومجتمعنا بعـــد ثورة يوليو العظيمة له أســـلوب اجتماعى وسياسى ، وهذا الأسلوب نلتزمه جميعا ، وهذا الالتزام يعطينا الحرية فى أن نرى به وأن نحس به ، ولأننا مؤمنون به ، فهذا الايمان ملزم لنـــا .

فنحن جميعا ملتزمون وملزمون فى نفس الوقت •

وحريتنا فى أن نعبر وأن نحس هذه الحرية ، هى شـــهادة ميلاد متجددة للفنان •• بل وبعد أن يموت الفنان يبقى عمله الفنى •• فالفنان يموت ولكن فنه لا يموت ••

تماما كما حدث للبطل الافريقى الذى وصل الى مدينة أثينا يحمل الشعلة فى السباق الطويل المشهور •• وان الأساطير تؤكد أنه مات قبل أن يصل الى أثينا بساعة !

وظل يجرى وهو ميت فكأنه مات وبعد ذلك انتصر •• انتصر وهو ميت •• انتصر بعد أن مات بساعة •• أى انه عاش بعد موته •• وكذلك الفنان يسجل انتصاراته على الزمن على التاريخ بعد موته بسنة •• أو بعشرات السنين •

هذا الجرم العقائدي

منذ أول مجنون أحب ليلى ...

منذ أول قيس أحب لبنى ...

منذ أول كثير أحب عزة ...

حتى أول « حمدان » أحب « بهانة » ونحن نجد المحبين على استعداد لأن يمشوا فى الماء . ويطيروا فى الهواء ويدخلوا النار ، ويبيتوا تحت الشباك وتحت جرادل الماء . من أجل عيون المحبوبة .. من أجل نظرة من جانب من عينيها .. أو تنهيدة من قلبها .. وهذه التنهيدة ترفع فستانها فوق صدرها ولو مليمترا واحدا ..

ان قصائد الشعراء العاشقين على قدر ما فيها من وصف للعذاب فيها تهوين أيضا لهذا العذاب . وانه من أجل المحبوبة لا يساوى شيئا .. وعلى قدر ما فى هذه القصائد من بكاء ، فيها أيضا احتمال لهذا البكاء وأكثر من البكاء ..

وفى كل قصائد الشعراء العشاق بطولات خارقة . فهو يروى لمحبوبته كيف أنه قابل الظلام والأشباح والوحوش بشجاعة نادرة ، وكيف أنه كان يضىء الليل بسيفه ، وكيف أن قطرات

عرشه ودموعه هى نجوم السـماء • وكيف أنه أصبح صديقا للوحوش • والغابات والجبال •• فهو لا يخاف من الوحوش • وانما الوحوش هى التى تخافه • كل هذا من أجل المحبوبة ••

وكن واحدا من هؤلاء المحبين لم يفكر فى القتل •• لم يفكر لحظة واحدة فى أن يخرج من بيته أو من الكهف الذى يعيش فيه أو من الشجرة التى يسند اليها ظهره • ليمسك سيفه ويقتل أى انسان أو حيوان أو حتى حشرة صغيرة ••

ان الناس والحيوان والحشرات كلها تهون فقط اذا اعترضت طريقه الى محبوبته • ولكن اذا لم تعترض طريقه • فهو لا يفكر فى القضاء عليها ••

فالقتل ليس غاية ••

وانما القتل وسيلة •• أو القتل محاولة للقضاء على عقبة فى طريقه المفروش بدمه ودموعه •• من أجل ست الحسن والجمال التى يحبها !

والشاعر الايطالى العظيم « دانتى » كان يحب الفتاة الصغيرة بياتريتشه ، وقد تعذب من أجل حبها •• وتخيل يوم القيامة ويوم الحساب ، ووضع الناس كلهم فى جهنم • ثم أشعل عليهم النار •• ولكن هذه النار التى كانت ألسنتها تكوى الفلاسفة والشعراء والأدباء والفنانين • كانت تتحول الى ماء بارد • وهواء منعش ، وجنات تجرى من تحتها ومن فوقها الأنهار لمجرد أن بياتريتشه قد أطلت بجانب من وجهها وابتسمت لفتاها الولهـان ••

وكان الشاعر دانتى على استعداد لأن يحرق لها الدنيا كلها لكى تشعر لحظة واحدة بالدفء • وكان على استعداد لأن يفرش لها الطريق من قلوب الناس اذا شاءت أن تأتى لزيارته ••

ولكن الفتاة الصغيرة لم تأت ولم تشأ أن يحقق لهـــا شيئا ••

وعندما يبكى الشاعر دانتى كان يقول لها : فى طريقى الى محبوبتى داست قدمى وردة • اننى سمعت بكاءها • كانت أوراقها تبكى بعضها على بعض • كل ورقة جفن عين • وكل عين تذف عطرا ملونا •• اننى مجرم يا حبيبتى • اغفرى لى جريمتى ••

ولم تغفر له تلك الجريمة البشعة • لقد قتل وردة !

مع أنه على استعداد لأن ينسف الكون كله اذا استطاع لكى يرضيها •

والشاعر الايطالى « بتراركه » كان يحب فتاة صغيرة اسمها لورا •• وكان يحتفظ لها بدموعه فى منديل •• وربما كان بتراركه هو أول من قال ان طعم الدموع مختلف عن طعم الماء ••

ولم يكن يملك جهازا لتحليل تركيب الماء أو تركيب الدموع • ولكنه ذاق طعم الدموع •• وذاق طعم المـــاء الذى هو دموع السماء على ذنوب البشر • أو الذى هو مشـــاركة من ملائكة السماء لعشاق الأرض ••

وبتراركه هذا كان ضعيف البنية • ولكنه استطاع أن يضرب

أحد الأثرياء على رأسه بقوة خارقة حتى كاد يقتله • ثم انه فكر أيضا فى قتله • واتهموه بالتآمر على قتل أحد الأمراء ••

ولكن بتراركه لم يفكر فى القتـــل • وانما فكر فى قتل أى انسان يعترض طريقه الى محبوبته •• فهو مثل كل المحبين شجعان أبطال لهم قوة خارقة أمام كل عقبة تقف أو يتوهمون أنها تقف فى طريق الفتاة التى يحبونها ••

فباسم الحب • كان من الممكن لأى شاعر مفتون أن يقتل أو يرتكب أبشع الجرائم !

وقد تغيرت هذه الصورة الآن ••

فنحن الآن نعيش فى عصر الذين يقتلون لا من أجل القلب ، ولكن من أجل العقل • فالشاعر القاتل • هو مجرم عاطفى • أو هو عاطفى ارتكب جريمة • أما القاتل اليوم فهو مجرم مفكر أو مجرم عقائدى ••

ففى هذا القرن قتل أكثر من سبعين مليون نسمة فى الحرب العالمية الأولى والثانية ، والحروب والثورات المختلفة فى أوربا وآسيا وافريقيا وأمريكا وكانت هذه الضحايا لأســباب غير عاطفية • أو لأسباب تتعلق بكراهية الانسان للانسان •• لكراهية الانسان لنفسه • فنحن فى الحروب نقتل من لا نعــرفه • ونقتل أناسا لم تكن لنـــا بهم صلة • ومع ذلك نقتلهم ونفوسنا مستريحة • لأن أسباب القتل قد أقنعتنا • أقنعت عقولنا • فهذه الجريمة هى جريمة منطقية •

فالمستعمر الأبيض يقتل المواطن الأسود . مع أن المواطن الأسود صاحب حق . فالأرض ملك له وخيراتها حق له . وهو مظلوم من مئات السنين . والرجل الأبيض مقتنع بأنه هو على حق . فليس من حق الرجل الأسود أن يعيش . بل ان بقـاء البيض فى أرض السود شرف لهم . فهم الذين أدخلوا السيارات والتليفونات والخمور والمخدرات والأفلام الى بلاده . ألا يكفى هذا لكى يستسلم الرجل الأسود ؟ . ألا يكفى هذا لكى يحنى جبينه ويحنى كفاحه وتاريخه ليسوده ويدوسه الرجل الأبيض ؟ فاذا ثار الرجل الأسود فجزاؤه القتل . لأنه نموذج للانسان المتخلف الذى لا يعرف مصلحته . وهو نموذج للانسان العاق . الذى يعض الحذاء الذى ضربه . ويعض اليد التى استعمرته ... الخ .

فالرجل الأبيض قاتل عن منطق . مجرم لأسباب اقتصادية فلسفية !

لأنه ليس عاشقا لابار البترول . ولا مفتونا مثل قيس وروميو بسن الفيل وجلد النمر .. وانما هو مجرم فيلسوف .. مثل الذى قتل غاندى وكيندى وبرناردوت وهمرشولد وبن بركة .. وغـيرهم .

فالرجل الأبيض عندما يغتـال هؤلاء البيض ، أو هؤلاء الزعماء لا يكون عاشقا فاشلا . ولا محبا مصدوما فى حبه . ولا مجروحا فى كرامته . وانما هو يقتل لأسباب فلسفية . كأن يكون القاتل شيوعيا ، والقتيل رجعيا .. أو يكون القاتل رجعيا،

والقتيل شيوعيا •• أو يكون القاتل متهوسا دينيا •• والقتيل رجلا متحررا أو من دين آخر ••

فالقاتل الآن صاحب رأى ، صاحب عقيدة • سواء كانت هذه العقيدة خاطئة أم صحيحة • فما دام معتقدا بها فهو لا يرى فيها عيبا ، بل انه يتصرف بمقتضاها كأنه محب مجنون • أو كأنه مخمور فقد وعيه ••

فالاعتقاد قد بلغ به درجة الهوس ••

فهو كالذى يحب بلا منطق • وهو كالذى يؤمن بلا تفكير •• مع أن عقيدته السياسية لا علاقة لها بالحب • ولكن هذه العقيدة قد سدت عينيه وأذنيه وأضاعت عقله • •

فهو مقتنع بها عقليا • لدرجة أنه لم يعد يفكر فيها ، أى لدرجة أنه لم يعد عنده عقل !

لقد انتهى عصر المحب القاتل ••

ودخلنا فى عصر الكارهين المجرمين ••

أو انتهى عصر الشاعر الذى يجد نفسه مضطرا الى الجريمة•

ودخلنا فى عصر الفيلسوف الذى يستعد دائما لارتكاب أى جريمة !

ان جوليانو القرصان الايطالى الذى عاش فى جزيرة صقلية ، كان أحد المحبين الذين وقفوا فى وجه القانون ، يوم كان القانون حاجزا بينه وبين حبيبته •• وقتل عددا من الأبرياء

دفاعا عن قلبه .. عن حبه .. عن شعور خاص به هو .. فهو مجرم لأسباب عاطفية !

ولكن ازوالد وروبنشتاين لن يكونا آخر المجرمين لأسباب سياسية .. اقتصادية .. أى لأسباب منطقية !

فلا خلاف بين الناس على جانبى الاطلنطى .. ولا خلاف بين الناس على جانبى الستار الحديدى .. لا من الناحية الجسمية ولا النفسية ولا من الناحية الفيسيولوجية .. ولكن الخلاف فقط خلاف مذهبى .. خلاف عقائدى .. منطقى .. وما دام الخلاف عقليا ، فلابد أن تكون هناك جرائم .. يرتكبها الأفراد .. أو تقوم بها الحكومات .. لأن الحكومات تعتمد على المذهب السياسى . أى على المنطق . واذا احتكمت الى المنطق . فالمنطق جامد بارد كالسلاح . والأسلحة اذا احتكمت اليها فانها لا تنثر الورود وانما تطلق النار والدمار .

فالمحب الشاعر يقتل فردا واحدا . ويظل يبكيه طول عمره .

ولكن الفيلسوف الكاره يقتل الملايين ويظل طول عمره يبكى لأنه لم يقتل بما فيه الكفاية ..

ففى عالمنا الكثير جدا من المنطق . والقليل جدا من الحب .. الكثير جدا من الفلاسفة والقليل جدا من الشعراء .. الكثير جدا من ازوالد ، والقليل جدا من قيس وروميو وغيرهما من المجانين الذين لا يخربون العالم كما تخربه العقلاء أصحاب المذاهب السياسية والعقائدية الفلسفية ...!

لا صلبوا المسيح ولا قتلوا كنيدى !

لست من رجال الدين ، ولكنى مضطر الى الكلام من بعيد جدا عن قضية دينية قديمة لأسباب جديدة •• وليس من الصعب بعد ذلك أن تربطها بمقتل كنيدى ••

هناك خلاف بين المسيحيين على من الذى أدى الى صلب المسيح • بعضهم يرى أن الرومان هم الذين حبسوه وحاكموه وصلبوه • وبعضهم يرى أن اليهود وراء الحبس والصلب • وأنهم الذين أراقوا دم المسيح • ولذلك فهم مصاصو دماء الأنبياء •

فالكاثوليك لا يؤكدون أن اليهود هم الذين صلبوا المسيح •• والبرتستانت والأرثوذكس يؤكدون أن اليهود هم المجرمون • فهم الذين اتهموا المسيح بأنه يطالب بعرش اليهود • وكان الملك فى ذلك الوقت يهوديا ، وكانت القوات العسكرية رومانية • وطبيعى جدا أن يدافع ملك عن عرشه •• ودافع عن عرشه

وسجن المسيح وصلبه بعد ذلك •• ثم ان هؤلاء اليهود هم الذين أشاروا بسجن المسيح •• وهم أيضا الذين اقترحوا اطلاق سراح أحد المسجونين ، بدلا من المسيح ••

وكل هذا كلام قديم ومعروف •• والخلافات بين الطوائف المسيحية ، في هذه النقطة لا حد له ••

ولكن الجديد هو أن هناك اتجاها واضحا جدا بين الكاثوليك على تبرئة اليهود نهائيا من دم المسيح •• لا بأن يعلن اليهود أنهم مساكين ومظلومون وأن هذه تهمة الصقت بهم •• وقد تعذب اليهود بعد ذلك عشرات المرات • وأنهم كفروا عن هذه الجريمة البشعة مئات المرات : وأن الذى فعله هتلر بهم ، ليس الا انتقاما مما فعلوه فى المسيح ، على الرغم من أن هتلر كان رجلا ملحدا ، وأن السبب لاستئصال اليهود كان عنصريا وسياسيا واقتصاديا ••

ولكن اليهود لجأوا الى أساليب أخرى •• لقد ضغطوا على الكنيسة الكاثوليكية •• وكان الضغط رقيقا متواصلا •• فقد ظهرت كتب كثيرة جدا تفسر الكتاب المقدس •• وتفسر صلب المسيح بالذات ؛ وبأقلام الكاثوليك أنفسهم •• وكانت هذه الأقلام تلقى دمعة على الصليب وعلى المصلوب •• وكل دمعة كانت « كالأستيكة » التى تمحو الدماء التى علقت بملابس اليهـود ••

وركز اليهود الضغط على البابا يوحنا الثالث والعشرين • ووافق يوحنا على أن يصدر قرارا بالعفو عن اليهود والحكم

براءتهم من دم المسيح . والبابا ــ عند الكاثوليك ــ معصوم من الخطأ . فالذى يقوله : قانون سماوى .

ونشرت الصحف الدينية فى العالم ، وقبل وفاة البابا الراحل أن اليهود أبرياء من دم المسيح . وأن هذا الرأى منسوب الى شخصية دينية كبرى على صلة وثيقة بالبابا ..

ولم يبق بعد ذلك الا أن يعلن البابا نفسه أن اليهود ؛ بعد عشرين قرنا ؛ أبرياء من دم المسيح ..

وفى روما انعقد مؤتمر من رجال الدين الكاثوليك .. وناقشوا وثيقة تنادى بالاخاء والمحبة بين كل الأديان . وتنادى بالوحدة بين المسيحيين ، وتؤكد أن الدين هو التسامح . ولذلك يجب أن يسود التسامح كل الناس من كل دين ، وكل الناس من نفس الدين ..

وأهم من هذا أنه قد حان الوقت ليعــرف الناس وبصورة قاطعة أن اليهود لم يصلبوا المسيح .

وأخذت الأصوات على هذه الفقرة فوافق ٢١١٤ ضد ٤٠ صوتا ..

وافقوا على أن الكاثوليك فى كل العالم يرون أن اليهود لم يصلبوا المسيح وانما الذين صلبوه وعذبوه هم الرومان الوثنيون الذين لا دين لهم ولا أخلاق لهم ... الخ ..

وأعلنوا فى المؤتمر أن البابا الراحل كان من رأيه أيضا ضرورة اصدار هذه البراءة لتخفيف الأحقاد الموروثة بين المسيحيين واليهـــود ••

ومن الغريب أن هذا المؤتمر قد انعقد بسرعة •

أى أن قرارات هذا المؤتمر ، كانت من الضرورى أن تصدر فى منتصف هذا الشهر •• أى قبل أسبوع واحد على اغتيال الرئيس كنيدى ••

وكنيدى كاثوليكى • والذى قتل كنيدى يهودى ، والذى أطلق الرصاص على قاتل كيندى يهودى أيضا • والذى يجرى التحقيق يهودى ••

ففى الوقت الذى يحرص فيه الكاثوليك على عقد صلح مع اليهود يقوم اليهود باغتيال أعظم شخصية كاثوليكية مدنية فى العـــالم !

واليهود لا يريدون من وراء ذلك الا أنه ليس من المعقـــول أن يكونوا قد اصطلحوا مع الكاثوليك وفى نفس الوقت يغتالون كيندى الكاثوليكى • وانما الذى اغتاله شخص واحد ، مجنون أو غير مجنون فهو لا يمثل الا نفسه ••

وهو أيضا اذا كان يهوديا وأخطأ ، فليس معنى ذلك أن يتحمل اليهود كلهم نتائج هذا الخطأ ••

فاليهود قد أظهروا حسن نيتهم ••

والكاثوليك قد أصدروا البيانات التى يريدها اليهود ، ومن أعلى منبر مسيحى فى العالم .. أما الحماقات التى يرتكبها أفراد اليهود ، فهى كالحماقات التى يرتكبها أفراد المسيحيين .. لا يجب أن يعاقب من أجلها كل الناس الأبرياء ..

ونجحت الخدعة الكبرى .. وهى تبرئة اليهود من دم المسيح، ومن دم كيندى أيضا .. !

وقبل أن ينجح اليهود فى الضغط على الفاتيكان ، اكتسحوا المكتبات ودور السينما والتليفزيون بوثائق جـديدة لتعديل التاريخ الدينى للعالم كله ..

فبعد الحرب الأخيرة قرر اليهود أن ينتقمـوا . وأن يكون الانتقام بأيدى غيرهم . فهم حاكموا الألمان بأيدى الأمريكان والانجليز والفرنسيين وأدخلوا الألمان السجون ، وأعدموهم ، وأذلوهم ، ثم هم عادوا الى ألمانيا بأموال كثيرة وبشروط كثيرة . وأصبحت تهمة : أنت يهودى من أخطر التهم التى نص عليها القانون الاتحادى فى ألمانيا ..

ودارت مطابع دور النشر اليهودية تعيد كتابة التاريخ .. فمن المعروف أن الفليسوف الألمـانى نيتشه لا يحب اليهود ويحتقرهم . فأعادوا طبع كتبه وحذفوا منها كل عداء لليهود . وادعوا أن أخت الفيلسوف هى التى أضافت هذه الصفحات المعادية لليهود ..

وبحث اليهود عن مؤلفين جدد يتحدثون عن بشاعة النازية

ومعسكرات الاعتقال . وظهرت عشرات القصص والأفلام كلها تؤكد أن الألمان مجرمون وأن النازيين وحوش وأن اليهـود مظلومون فى كل العصـور ، وأنهم يسـتحقون الشـفقة والرحمة ..

ثم ضغط اليهود على كبار المؤلفين ..

فأصدر الفيلسوف سارتر كتابا بعنوان تأملات عن المسألة اليهودية دافع فيه عن اليهود وعن قضاياهم ، واتهم بالسخف والتحيز كل الذين يكرهون اليهود . وقال ان كراهية اليهود ليست إلا غيرة من الشعوب لهم ..

وأصدر مسرحية « سجناء الطونا » دافع فيها عن اليهود أيضا ضد النازيين ..

وغير الفيلسوف سارتر كثيرون جدا ..

وظهرت بطولات وهمية على الشاشـة لأطفال تعـذبوا فى معسكرات الاعتقال وكتبوا مذكراتهم ..

وأشهر هذه المذكرات « يوميات الطفلة آن فرانك » التى ظهرت على الشاشة .. والتى تنتهى بأن الفتاة الصغيرة تطلب العفو .. تطلب من الله أن يعفو عن الألمان . فلم يكونوا أحرارا، وانما كانوا خائفين . وأن هتلر هو الذى ضغط عليهم ، وخيرهم بين أن يقتلوا اليهود أو يقتلهم .. واختاروا لأنفسهم الحياة .. و « يوميات الطفلة آن فرانك » ظهرت على شكل كتاب وعلى شكل مسرحية وفيلم وأوبرا وباليه !

وكلها تشيع التسامح والعفو ونسيان الماضى ••

ولم تتوقف حملات اليهود ضد النــازية •• كانت تنتهز المناسبات المؤلمة الدامية ، لتزيف التاريخ •• كما حدث فى فيلم « بن هور » الذى كتبه جنرال أمريكى يهودى اسمه ويليامسون • وهو يروى قصة أمير يهودى اضطهده الرومان • تماما كمــا اضطهدوا المسيح وعذبوه • كما عذبوا المسيح وطردوه من بلاده، حتى اضطر المسيح أن يهرب الى مصر • وهذا الأمير عذبوا أمه وأخته •• وعاشت أمه وأخته فى احدى المغارات مصابتين بأبشع الأمراض ••

وأهم من هذا كله أن المسيح عندما كان يحمل صليبه تقدم هذا الأمير بن هور والدموع فى عينيه يريد أن يحمل الصليب عن المسيح • وحول الأمير بن هور أمه وأخته وزوجته • وكل اليهود يبكون على ما أصاب المسيح ••

ومن أجل هذه المحاولة محاولة بن هور حمل الصليب عن المسيح ، وهى محاولة استغرقت عشرين ثانية ــ دفعت شركة مترو ثلاثين مليونا من الدولارات !!

وأحدث مسرحية من هذا النوع هى التى كتبتها فتاة يهودية اسمها آن وليام ليفين • والمسرحية اسمها « يكفى أن نتمشى معا » تصور لنا اثنين يمشيان فى الظلام •• واحد منهم قد وضع عصابة حول عينيه ، والآخر يرتدى منظارا أسود • والدنيا ليل • وتحت مصباح وقف الاثنان • أما صاحب المنظار الأسود فهو

أعمى • ولكنه يعرف الطريق • وأما الذى وضع عصابة على عينيه ، فليس أعمى ، ولكنه لا يعرف الطريق • وما دام لا يعرف الطريق ، فلا قيمة لعينيه ، فهو كالأعمى •• ويقول أحدهما للآخر : أنت تعرفنى • ويجيب • لا ••

ويسأله : اذن كيف التفت ذراعى حول ذراعك ؟

ــ هل من الضرورى أن تعرفنى ؟

ــ لا أعرف ••

ــ هل أنت مسيحى ؟ ••

ــ هل من الضرورى أن يكون الانسان مسيحيا ليعطيك ذراعه ••

ــ اذن أنت يهودى ••

ــ فاذا عرفت أننى يهودى هل تسحب ذراعك لأننا صلبنا المسيح ••

ــ فى هذه الحالة أسحب ذراعى •• لأننى لم أكن أعرف أنكم صلبتم المسيح •• هل اعترفتم بهذا • لم يعد يهمكم شعور الناس •• سأرفع المنديل عن عينى •• الآن فقط قد عرفت طريقى •• قد عرفت من هم أعداء الانسانية ••

ــ ولكنك أنت يهودى ••

ـ هذا صحيح ••

ـ فلماذا تأثرت هكذا ••

ـ لقد سمعت عن جريمة بشعة ••

ـ ولكن ألا تعرف ، أننا لم نصلب المسيح ••

ـ هذا صحيح •• ولكن لماذا يقول المسيحيون اننا صلبناه••

ـ لم يقل أحد ذلك •• اننا نحن الذين قلنا ذلك ••

ـ ومتى قلنا ذلك ••

ـ أنت قلت الآن ••

ـ وهل سمعنى كل الناس ••

ـ اذا قال كل يهودى مثل هذا الكلام فسيسمعه كل الناس•

ـ والحل ؟

ـ ضع المنديل على عينيك ودعنى أهدك •• ونحن نعيش فى عالم أسود •• لا قيمة فيه للعيون ! ••

••• الى آخر هذه المسرحية التى تدعــو الى غسل أيدى اليهودى من دم المسيح •• والى آخر هذه المهازل التى يقوم بها اليهود فى كل الدنيا •• يزيفون التاريخ ، لا بأيديهم ، ولكن بأيدى غيرهم • والناس الطيبون أو الانتهازيون ، يمشون

وراءهم ويخلعون الأثواب الدامية عن اليهود ، ويلقونها على الرومان قديما ، وعلى الألمان حديثا ..

فالذى قتل المسيح أناس آخرون ..

والذى قتل كيندى أناس آخرون ..

صحيح أن القاتل الأول يهودى ، ولكنه لابد أن يكون مجنونا .. والقاتل الثانى يهودى ولابد أن يكون مجنونا ..

واذا كانت معالم جريمة اغتيال كيندى ، التى وقعت فى عز الظهر وأمام التليفزيون والعدسات ، ورجال البوليس السرى والعلنى وفى القرن العشرين ، غير واضحة .. فهل من المعقول أن يعرف الناس من هو الذى صلب المسيح أو الذين كانوا السبب فى صلبه .. هل من الممكن أن نفصل وبوضوح وبصورة قاطعة فى جريمة وقعت من عشرين قرنا ، وفى ظروف غامضة ، ولا تتوافر فيها الأدلة ولا أركان الجريمة ؟!

والكاثوليك يقولون : معقول !

واليهود يصفقون سعداء . بهذه العملية التى انطلت على الملايين .. ثم ينتقلون الى حيلة أخرى ، ومجال آخر يزيفون فيه التاريخ بأسلحتهم القوية : الدموع والذهب والارهاب !

والنظام الرأسمالى فى أمريكا يسمح بقيام مثل هذه العصابات اليهودية وأمريكا تدفع الثمن .. وقد دفعته هذه المرة غاليا . ولابد أن تصبح الكراهية الهامسة لليهود ، كراهية صارخة داوية كالرصاص الذى أصاب كنيدى ، أصاب رجل السلام ، والرجل الذى أذاب الجليد بين الشرق والغرب .

بعد عشرين سنة

بعد عشرين سنة انتهى المشوار !

كل يوم جمعة ، والأعلام مرفوعة على الدواوين ، وعلى جانب الطريق ، ومن عشرين عاما ، كنا نجرى الى بيت رقم ١٣ فى شارع السلطان سليم « شفيق غربال حاليا » ونصعد السلم الى الدور الثانى ونتجه الى الشقة التى على اليمين •• والى الباب الذى على اليمين ، وعلى الكرسى الذى تحت لوحة بالزيت لرجل فى الأربعين من عمره له شارب مليان ، وعلى رأسه طاقية بيضاء ، وحول عنقه كوفية • ولا هى ملفوفة ولا هى ملقاة على صدره ، وانما هى أقرب الى أن تكون متعلقة به •• كأنها هالة من أشعة الشمس عند الشروق •• أو كأنها تدل على حالة خاصة لهذا الرجل فعلى الرغم من أنه من أقصى الجنوب الحار ، الا أنه يشكو من البرد ، وتدل أيضا على أنه حريص على أن يحتفظ بها فى هذه اللوحة •• كأنه أراد أن يخلدها معه •• وعند ما نجلس فى هذه الغرفة الى جوار الباب ، متجاورين متحفزين فى انتظار قدوم صاحب البيت ، والرجل الذى نتلهف عليه •• على صوته ، على علمه ، على خلقه ، على أستاذيته عباس العقاد ••

ويدخل العقاد ، ولا يلف حول عنقه هذه الكوفية •• ويبدو أنه لم يتمسك بها • وانما تمسك بها الفنـــان الذى رسمه فقط •• ويجول وما أروع ما سمعناه • وما أكثر ما أخفيناه ونسيناه • أما الذى قاله ففى الأدب والفن والعلم والطب والفلك والسياسة وما أروع ما أحسسنا به وهو يتحدث فى هدوء • وبصوت يعلو ويهبط ولا يسكت •• ويبدو أنه يستمر استمرارا ، من حرصنا على أن يستمر •• فكأن العقاد جهاز يمتلىء بحرارة الحاضرين •• وكان العقاد يشعر أننا لا نريد أن نقاطعه ولا أن نسأله • وانما يكفى أن يقول ويقول ويصول ويجول •• ويلقى الأضواء على كل شىء •• وكنا نحس بشىء آخر لا يعرفه العقاد • كنا نحس بأنه يضاعف من قيمتنا •• يضاعف فى أسعارنا •• كنا ندخل الى بيت العقاد صغارا ونخرج وهاماتنا مرفوعة وكراماتنا مصونة •• يكفى أن يمسك الانسان كتابا ، يكفى أن يقبل عليه ، وأن يقبله أيضا • وكان العقاد يقول لنا ان أحسن شىء فى الدنيا هو الكتاب • ولكن مهما كان هذا الكتاب فلابد أن نفكر فيه ••

ان العقاد لم يسافر خارج مصر الا مرتين •• مرة الى فلسطين ومرة الى السودان •ولكنه كان يقول : اننى أعرف كل ما فى الدنيا وأنا هنا • فقد قرأت كل شىء • وأنا أعرف أناسا يذهبون الى أركان العالم الأربعة ويعودون أكثر ضعفا وأكثر ظلاما •

وكان يقول : لا يوجد مكان فى أوروبا اذا ذهب اليه الانسان ولمسه حلت به البركة والمعرفة !

وكان العقاد يقول : ان رحلاتى فى داخل النفس الانســانية طويلة وعميقة ولم تنته بعد ••

وكان يقول : ليس الطريق الى النفس الانسانية هو أن نفكر فيها مباشرة • وانما الطريق اليها يمر بالحشرات وبالانسان • فليست الحشرات الا صورة واضحة من الحيوانات •• وليست الحيوانات الا صورة واضحة للانسان •• أما الغموض كله ففى الانسان •• ومع ذلك فاذا كانت النفس الانسانية غامضة فان الانسان يجب أن يبحث لها عن مفتاح ••

وقد أدمن العقاد صناعة المفاتيح ••

ففى كل شخصية درسها انشغل بالبحث عن المفتاح • وكان العقاد يجد المفتاح بسهولة رائعة • وعندما نقرأ عن تركيب هذا المفتاح يخيل الينا أنه مفتاح صغير ، وأنه من السهل أن يجده أى انسان • ولكن هذه المفاتيح لم تكن ميسورة ولا سهل العثور عليها فى أى وقت ولا فى أى مكان ، ولكن العقاد استطاع • فعينه نافذة ويده أطول من قامته ، وظله على التاريخ أطول من المسافة بين أسوان والقاهرة اذا حسبنا كل كيلو بعام !

سألت العقاد مرة : يا أستاذ لمـــاذا لا تتزوج ، أريد سببا فلســفيا ؟

فأجاب العقاد : ان أمى سألتنى هذا السؤال • فهل عرفت ما الذى قلته لهــا •

قلت : لا ••

قال : هل تحب أن أجيبك بنفس السؤال •• فى كل مرة تسألنى أمى لمـــا لا تتزوج أقول لها : لن أتزوج الا اذا تزوجت أنت !

سألته من عشرين عاما : وهل تحب الأطفال ؟

فأجاب : جدا •• وأبكى لآلامهم •

وسألته : ولا تحب أن يكون لك أطفال ؟

وكان العقاد يقول : كلنا نحب القمر •• فهل من الضرورى أن يملك كل منا القمر ••

أما الزوار الذين تربطهم بالعقاد صلات أكبر ولا نعرف متى بدأت ، منهم : على أدهم وعبد الرحمن صـــدقى وصلاح طاهر والشـــجاعى وزكى نجيب محمود واللواء شـــوقى عبد الرحمن وطاهر الجبلاوى ••

وكان العقـــاد يسترشد بهم عندما يتذكر أحـــداثا معينة فى التاريخ القديم • وكنا نحسد هؤلاء الكبار على هذه الصلة التى لم ندركها وعلى الأيام التى ضاعت دون أن نعرف العقاد • لقد كنا نسمع عن العقـــاد أكثر مما نقرأ عنه ، وكنا نقرأ عنـــه أكثر مما نقرأ له •

ان صورته وملامحه تدل على أنه شخصية •• وشخصيته لها أبعاد ولها أعماق • وأنفه الطويل يدل على كبريائه • وشـــفتاه المزمومتان تدلان على صلابته ، ورأسه الكبير المليء ، وجبهته

العالية ، وقوامه الممدود ، والطربوش الذى يعلو العنق الطويل الملفوف بكوفيته ، وخطوته الواسعة ، وثقله الذى يلقيه الى الأمام ، كلها تدل على أنه شخصية عريضة طويلة عميقة سامية

رحم الله أستاذا علمنا الكثير جدا • وكان من الممكن أن يعلمنا أكثر لو أنه تمهل قليلا • ولكنه كأى أب لم يشأ أن يلقن أطفاله كل شىء ، لقد تركهم يعتمدون على أنفسهم ••

وبعد اليوم عاد لرقم ١٣ كل معانى السوء التى حاول العقاد أن يمحوها من عيوننا ، وعاد لصوت البومة نعيقها الرهيب ، برغم أن العقاد قد تحداها •• وعاد للشارع ظلامه وضبابه ، ولا يهمنا بعد اليوم ان كانت سلالم بيت العقاد قديمة أو قليلة ••

لقد أصبح القلم الذى يكتب به العقاد تابوتا مقفلا ، كقبر مظلم أما روح صاحب التابوت ، وعقل صاحب القلم فباق فى الفكر العربى •• لقد مات عباس بن محمود بن العقاد من مواليد أسوان وبقى العقاد لنا وفينا وبرغمنا وبعدنا !

معدة تهضم الماء وعقل يسحق الزلط!

كان الأستاذ العقاد يصف سلالم بيته القـديم جدا فى مصر الجديدة بقوله : كنت أصعدها ثلاثا ثلاثا،وصعدتها اثنتين اثنتين، واليوم أصعدها واحدة واحدة .. صعدتهـا وبياض شـعرى يتوارى فى سواده ، واليوم أصعدها وسواد شعرى يتوارى فى بياضه ! .

وأنا كنت أصعد هذه السلالم من عشرين سنة .. فلا تغيرت السلالم . ولا تغيرت حماستى وأنا أصعد السلالم اثنتين اثنتين . وبالأمس صعدتها ثلاثا ثلاثا . لكن كان الأستاذ العقاد مريضا . وجاء مرضه مفاجأة للعقاد نفسه . فلم يكن ينتظر العقـاد أن يضايقه المصران الغليظ بهذه الصورة المؤلمة .. فقد أخذ العقاد يتلوى ويئن ويتوجع ويترك شقته ويذهب الى شقة أولاد أخيه . وهى الشقة المواجهـة . ويطلب اليهم أن يبحثوا عن طبيب . وعندما جاء الطبيب فوجىء بأن العقاد مريض من نوع خـاص جدا . فهو يعرف حالة مرضه . ويعرف كل تحركات أمعائه . والمصران بصـفة خاصة ، فقد قرأ العقـاد عن المصران الغليظ وأوجاعه وآلامه . وخرج العقاد بنتيجة واحدة هى أن المصران الغليظ عضو غريب . لا ضرورة له . وهو العضو الوحيد فى جسم الانسان الذى يساعده عضو آخر عندما يتعب . وهو لا يساعد

أى عضو آخر عندما يتعب •• وأنه مهما كان جسم الانسان قويا سليما ، فان اضطرابات هذا المصران تؤدى الى لخبطة كل نظمه •

قلت للعقاد : ان توفيق الحكيم أخبرنى مرة أنك تختار الأطعمة التى تناسب صحتك باستمرار وأن توفيق الحكيم لم يندم على شىء الآن قدر ندمه على أنه لم يكن حنبليا فى طعامه وفى شرابه • وتوفيق الحكيم يحتفظ الآن فى جيبه بجدول للأطعمة التى يجب أن يتناولها •

وقال العقاد : اننى عندما أدعو بعض الأصدقاء الى تناول الطعام فى بيتى ، فأنا حريص على أن أخفى طعامى الخاص • ولا أعرف كيف التفت الحكيم الى ذلك • انه عفريت خبيث •

وتقلب العقاد فى فراشه • وحاولت أن أغير الموضوع • اشفاقا عليه من المجهود الذهنى الذى يبذله العقاد فى أى كلام يصدر عنه ، جادا أو مازحا •

ورغم أن العقاد متماسك جدا ، ويخضع كل تصرفاته للعقل والمنطق فانه عصبى جدا • أو بعبارة أخرى : لأن العقاد يضع كل شىء فى عقله ويحبسه جيدا • فهو متوتر الأعصاب • ليست هذه ملحوظتى •

والعقاد يحتفظ فى بيته بخادم من أقصى الجنوب • وهو الوحيد الذى يلخبط حياة العقاد اليومية • فهذا الرجل عينة بشرية ، فهو يفكر بطريقة غير مألوفة ، وطريقة غير معروفة فى

الكتب ولا يمكن أن تخضع لمنطق أو عقل ، أو تخضـــع لمنطق لا يعرفه العقاد ، وهذه هى النكتة الوحيدة التى تقيم فى بيت العقاد ، وقد كتب عنه العقاد كثيرا ، وكتب العقاد أيضا ان سر اهتمامه بالحشرات والطيور يرجع الى أن هذه الحشرات ليست الا الصور الأولى للحياة على الأرض ، فالحشرات هى «بروفات» للحيـــاة كلهـــا ، أو الحشرات هى طفولة طفولة الحيـــاة الانسانية ، وربما كان احتفاظ العقـــاد بهذا الخـــادم لأسباب تاريخيـــة !

قلت للعقـــاد : أنا اندهش لهـــذا البيت الذى تعيش فيه ،، لا توجد به أية وسيلة من وسائل الراحة ،، لا السرير ولا المقاعد ولا النوافذ ولا الخادم حتى الشبابيك لم تعرف الســـتائر وانما هى مدهونة بالنيلة الزرقاء ،،

واستعد العقاد ليرد على هذا الهجوم ،، ولكن مضيت أقول له : والدواليب وعشرات الأحذية التى تغطت بها أرضية الغرفة ، حتى أولاد أخيك ليسوا هم الذين يملأون وحشتك وليسوا هم الذين يسعفونك فى كل وقت ،،

ومضيت أقول له : ان أصغر انسان يمسك قلما فى هذا البلد أو فى أى بلد أخرى عنده بيت أحسن من بيتك وأنا أعرف ما الذى ستقوله دفاعا عن هذه الملاحظات ، ولكنى لا أراها مقنعة ،،

وكأننى لم أقل شيئا قال العقـــاد : يا مولانا ،، هذا البيت

يستمتع بمزايا فلكية نادرة .. فالشمس تدخله من جميع الجهات، فى جميع ساعات النهار ..

وأشار الى أولاد أخيه أن يفتحوا النوافذ كدليل عملى على أن العقاد محق فى فلكية هذه الشقة التى يسكنها من أربعين سنة !

وتندهش اذا ذهبت الى بيت العقاد . ومررت على المطبخ وأنت فى طريقك الى مكتبته حيث توجد آخر ما أخرجته المطابع فى الدنيا .. آخر كتب عن الصواريخ . وأول اكتشافات فى الأدب اليونانى والفلسفة الانجليزية والتربية الجغرافية . واليوجا والصوفية والحشرات .. فاذا دخلت المطبخ أحسست أن هذه غرفة استأجرها سرا أحد بوابى العمارة . ففيها صفائح وزجاجات فارغة وعلب ووابور غاز . على هذا الوابور يطهى طعام العقاد وقهوة الزائرين . وأعتقد أن الوابور كان هدية من صاحب البيت . وربما كان هذا أول وابور غاز وصل مصر من خمسين سنة !

وتجد أنه لا داعى لأن نسأل الرجل الذى يضرب فى كل أسرار الكون والنفس والحيوان والصخور والمصران وكل الغدد والتيارات الأدبية والسياسية . والمريض الآن ، لا داعى مطلقا لأن تسأله عن سر احتفاظه بهذا الوابور .

سيقول لك : اذا اشترى بوتاجاز فسيؤدى الى حريقة فى البيت كله أو سيؤدى الى اختناق العقاد عندما يخطىء الخادم فى اقفال أنبوبة الغاز .

واذا قلت له : غير هذا الخـــادم •

يكون رد العقاد : ومن الذى يضحكنى • ومن الذى يحدثنى عن الانسان من عشرات الألوف من السنين •

ودفعت الباب المفتوح ورائى برفق حتى لا يقع فينكسر • وتزحلقت على السلالم المكسرة التى صعدها العقاد الى مكتبة تضم أربعين ألفا من الكتب يتوارى وراءها رجل هو عينة بشرية، يعمل طول النهار فى تسليك وابور غاز قديم • يطهو عليه أسهل الأطعمة فى الدنيا : الطعام المسلوق للعقاد • فمعدة العقـــاد لا تهضم المـــاء • وعقل العقاد يهضم صخور أسوان !

ليالى القاهرة

أنا واحد من ملايين النمل الأبيض الذى يجرى كل ليلة فوق حيوان ضخم .. وحش .. أسود .. نائم فى قلب الصحراء .

كل ليلة أجرى فى شوارع القاهرة .. هذا الوحش الهائل .. أجرى برجلى وبسيارتى وسيارات أصدقائى .. الشوارع طويلة مظلمة كأنها جثث ملقاة .. قتلهـا النهار .. فماتت فى النيل .. العمارات عالية صماء . جدرانها رطبـة .. زجاجهـا مقفل .. وأبوابها أيضا .. لا شىء مفتوح فى القاهرة الا الشوارع .. ولكن الى أين .. الى لا شىء ..

وفى أول كل ليلة نتفق أين نذهب ؟

ونختار مكانا وبعد مناقشـات وتفكير وأخذ ورد .. وأخيرا نتفق على المكان .. نفس المكان الذى نتلقى فيه كل ليلة !!

كأن القـاهرة كلهـا .. بضخامتها وفخامتها .. واتسـاعها وطولها وعرضها .. وعماراتها وشوارعها وملايينها الأربعة .. ودور اللهو والسينما ودور الصحف ومطاعمها ونواديها .. كأن هذه الهائلة المخيفة المريعة .. قد ضاقت فى خمس أو ست غرف نلتقى فيها كل ليلة .. وبعد تفكير ومناقشات نختار نفس المكان

كأننا نوهم أنفسنا فى كل مرة أن هذا المكان جديد •• كأننا لم نعرفه قبل ذلك •• لم نجلس فيه •• لم نلفه •• لم تكن مقاعده الجلدية التى تشعر أنها مسلوخة من نفس الحيوان الكبير الذى نعيش فيه •• حتى الجرسونات مللنا وجوههم وأصواتهم •• اننا نناديهم ولا ننظر اليهم •• نكلمهم ولا ندعهم يردون علينا •• ندفع لهم الفلوس •• وكأننا بلا عيون•• اننا نوكل دفع الحساب الى أصـــابعنا • فهى وحدهـــا التى تعرف الطريق الى أيدى الجرسونات ••

ولكن أيدينا أحسن حالا منا ••

ان أيدينا يمكن غسلها وتنظيفها •• بل يمكن تبديل رائحتها ولونها أما نحن •• فكما نحن •• لا تبديل •• لا تغيير • وعندما نبدل ونغير •• فاننا نختـــار نفس الثوب •• نفس الأكل •• نفس الشرب •• نفس المكان ••

ان القاهرة الكبيرة تشبه ثوبا واحدا ترتديه •• لقد اتسع الثوب وأحيانا تشعر أنه ضيق •• وأنه خشن •• وأحيانا يقع من فوق أكتافك •• وأننا عراة •• وأحيانا تشعر أنه « محزق » وأنه خانق •• وأنه فوق الركبة •• وأنه فوق الصدر •• وتشعر بأنه ملفوف على شكل « طوق » وهذا الطوق نضـــعه فوق رءوسنا • وأقدامنا تحملنا الى هدفنا كل ليلة •• كل ليلة ••

هذا الثوب الواحد الذى تقلعه وترتديه كل ليلة رائحته «عرق» رائحته ناس •• كثيرون •• ملايين أربعة ••

هذه هى حياة النمل الأبيض الذى يزحف بلا توقف على هذا الحيوان الضخم النائم فى قلب الصحراء على جانبى النيل ••

كل ليلة تشعر بهذا الضياع •• بهذه المدينة •• كل ليلة نبحث عن مكان •• نجلس فيه •• عن مكان نستريح اليه •• ولا نجد الا المكان الواحد الذى نختاره ونلعنه • والذى نجلس فيه وأنوفنا مسدودة منه • وعيوننا مغمضة عليه • وآذاننا قد التفت حولها أصابعنا ••

أنت لا تصدق لأنك تعيش فى مدينة صغيرة •• وتتخيل أن الحياة مملة فى مدينتك •• وأنت تتخيل أنك لو ذهبت الى القاهرة فانك ستجد عشرات الأماكن •• مئات المطاعم على النيل •• ويكفى المشى فى شارع سليمان أو شارع عماد الدين أو قصر النيل •• وتتخيل أن حياة الصحفيين •• يا بختهم يا سعادتهم •• بأن حياتهم مليانة بالنجوم والكواكب والسهرات والهيصة : نهارهم ليل •• وليلهم نهار •• وفيه طرب وحظ ••

وبينى وبينك هذا ممكن جدا •• وليس فيه صعوبة فنحن نعرف بحكم عملنا معظم الناس الذين تراهم وتقرأ عنهم •• ولكننا مشغولون •• والناس مشغولون أيضا •• وهم مثلنا كل شىء فى حياتهم متكرر ••

ثم انها نفس المشاغل والمشاكل •• نفس الوجوه •• نفس الكلام فى نفس الظروف ••

كل أبناء العواصم قرفانون •• ضائعون •• ضالون •• كل ليلة ••

وعندما يريدون النجاة من هذا الضلال فانهم يجتمعون فى مكان واحد •• هذا المكان الواحد هو هو لم يتغير •• ولا يستطيعون تغييره انه كافتيريا هيلتون أو كافتيريا سميراميس ••

كل ليلة •• فى نفس الوقت •• ونفس الظروف •• ونفس الوجوه •• وبنفس الحماس وبنفس القرف ••

كأن العاصمة الكبرى ليس فيها مكان الا هذا المكان •• كأن الناس بلا ارادة بلا قدرة على الاختيار ، كأنهم فراش يتجه نحو الضوء ثم يحترق •• انهم فراش يجرى •• ويجرى ويلهث ثم يرتمى عند نفس المكان •• يقع عليه •• وفمه على التراب •• كأنه يقبله وهو فى نفس الوقت يلعنه ••

أنا أقول لك ما هو شعور أبناء العواصم الكبرى ••

شعورهم أنهم كثيرون جدا •• وانه اذا سقط واحد فى الطريق •• أو حتى فى بيته • فان أحدا لا يدرى •• يموت منا الكثيرون •• أصدقاء ••زملاء أعزاء •• وكأن شيئا لم يحدث •• فالحياة تستمر •• والجرى فى الشوارع الفارغة والبحث عن المكان الواحد •• عن الكافتيريا التى تشبه غرف الغاز •• أو تشبه غرف التعذيب •• هل هناك تعذيب أكثر من أن يتسلط

الناس كلهم بعضهم على بعض •• فرن •• نار •• جحيم •• يتلعبط فيه الناس وهم على قيد الحيـاة •• ويلعنون المكان ويعودون اليه ••

هل تعرف شعور أبناء العواصم الكبرى ؟

شعورهم هو أن هناك قوة كبيرة جدا من الشوارع والعمارات تجعلهم تافهين •• تجعلهم لا قيمة لهم •• تجعلهم يفقدون وزنهم •• تجعلهم يسبحون فى بحر هائل هائج اسمه اللامبالاة•• فلا أحد يبالى بأحد •• ولا أحد يدرى بأحد •• ان كان حيا أو ميتـــا ••

كل شىء لا يريد أحــدا ••

كل شىء يسلب أهميتك وضروريتك التى تشعر بهـا وأنت فى أهلك •• بين أصدقائك ••

فأنت اذا كنت أبا مثلا •• وزوجتك تنتظرك ، وأولادك •• لك أهمية •• لك سعر •• اختفاؤك يحدث كارثة فى بيتك •• اختفاؤك معناه اهتزاز عنيف لكل الذين ارتبطوا بك ••

ولكن ما هو شعورك وأنت فى الشارع ؟

طبعا لا شعور لك •• لا قيمة لك فلا أنت تســاوى الأب ولا الابن •• ولا تساوى أى شىء ••

ولذلك فشعور أبناء العواصم هو أنهم لايساوون شيئا •• وهو أنهم بلا وزن •• بلا قيمة •• ولذلك يحرصون على أن يتلاقوا •• أن يتماسكوا أن يعطوا لأنفسهم فرصة ، ليكون لهم سعر •• ثمن •• وزن •• قيمة ••

أما شعور أبناء القرى فمختلف تماما •• كلهم مع بعض •• كلهم متقاربون كل الناس يسمعون كل الناس •• ويتكلمون مع الناس •• ويشعرون بكل الناس •• الذى يقول : آه فى أبعد أطراف القرية • يشعر به كل أبناء القرية • ويبكون له ويصلون من أجله •• حتى لو لم تكن بينهم صلة •• يكفى أنهم من قرية واحـــدة ••

أمافى المدينة ، أما فى العاصمة فلا أحد يعنيه أحد •• حتى أقرب الناس اليك : بعيد عنك ••

فالعواطف يقويها القرب ••

أما البعد فيضعفهـــا ••

وكلما طال شارع ابتعدت المسافات التى بين قلوب الناس •• حتى تتلاشى تماما •• كما تتلاشى العمارات العالية كلما ابتعدنا عنهـــا ••

فالعاصمة وكل عاصمة فى العالم •• صغيرة رغم ضخامتها ••

ومسدودة الشوارع رغم أنها طويلة • وبلا أماكن للهو والمرح رغم كثرة هذه الأماكن •

ومهما تحركنا فيها • ومهما جرينا وانطلقنا •• فاننا نتحرك فى دائرة محدودة • وبأصدقاء محدودين ونتسلى بأشياء محدودة • نفس الوجوه ونفس الملل والقرف •• انها ليست عاصمة التى نعيش فيها •• انها « عاصرة » عصرتنا فلم يبق فينا الا الجلد والبـــذر ••

فهل تعيش فى القاهرة ؟

نصيحتى : لا ! ابعد عن الملل وعن القر ••

(ملحوظة : لم أستطع أن أكمل كلمة « القرف » من شدة قرفى !)